

الفكر الاستشراقي وسبل مواجهته

إعداد

الدكتور/ ياسر محمد عبد اللطيف علي

مدرس الأديان والمذاهب بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

أكتوبر ٢٠٠٤

المجد الطنبجي نشر

الثقافة والتنمية

الفكر الاستشراقي وسبل مواجهته

د/ ياسر محمد عبد اللطيف علي

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على من أرسله ربه رحمة للعالمين،
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

وبعد....

كان العالم قبل بعثة الرسول (ﷺ) يعيش في ظلام دامس وجاهلية عمياء، فقد وصلت الإنسانية آنذاك إلى مرحلة الانحطاط الفكري، والتخلف الثقافي، والانحيار الأخلاقي، وذلك بعد ما خففت أنوار النبوة، واندثرت معالم الحقيقة.... وما كان الله - تعالى - وهو الرحيم بخلقه - لينذر الناس على ما هم فيه من التيه؛ فأشرق نور النبوة من جزيرة العرب، وأضاءت رسالة الإسلام للبشرية طريقها، واستطاع الرسول (ﷺ) أن يؤلف من القبائل المتناحرة، والشعوب المتنافرة، والآراء المتصارعة خير أمة أخرجت للناس.

يقول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَهٌ مُّحَمَّدٌ نَّصَرُّهُ ۝ (١) ۝ الْأُمُورُ ۝ (١) ۝

وحمل أصحاب رسول الله (ﷺ) عبء الدعوة الإسلامية من بعده، فجابوا الأقطار، وفتحوا البلدان، يبلغون الناس أعظم رسالة عرفتها البشرية، ولم تنته الخلافة الراشدة حتى دخل الإسلام بلاد فارس والعراق ومصر والشام.

واتسعت الفتوحات الإسلامية في عهد الدولة الأموية، حتى وصلت الجيوش الإسلامية إلى شمال أفريقيا ومنها إلى الأندلس، التي أسس

(١) سورة الشورى، الآيتان رقم: (٥١، ٥٢).

المسلمون فيها أسمى حضارة في تاريخ الإنسانية، وواصل الفتح سيره حتى وقفت الجيوش الإسلامية عند مدينة تور الفرنسية. وعلى الجانب الآخر كانت الدعوة تواصل مسيرتها في الشرق، ففتحت القسطنطينية على يد محمد الفاتح، وقاد قتيبة بن مسلم المسيرة إلى بلاد الصين، وصالح أهلها على الجزية.

وهكذا أسس المسلمون إمبراطورية إسلامية نشرت الإسلام من تخوم الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن أسوار فيينا وجبال البرانس في فرنسا شمالاً حتى أواسط أفريقيا جنوباً، وكانوا سادة البحر المتوسط من غير نزاع حتى جعلوه بحيرة إسلامية.

ولما دب الوهن، واستشرى الضعف في جسد الدولة الإسلامية، وجد الغرب الصليبي الفرصة سانحة كي ينفث عن حقه، ويقضي على الإسلام الذي بسط نفوذه على معظم الدول التي كانت خاضعة لسلطان الكنيسة.

فجرد الغرب الحملات الصليبية للقضاء على الإسلام، ونهب ثروات المسلمين - كما يفعل في الوقت الراهن - لكن كيد الأعداء مني بالفشل الذريع، وقبض الله من يدافع عن دينه، ويجاهد في سبيل حماية الدماء والأعراض والمقدسات الإسلامية.

وأيقن الغرب أنه لا بد من تغيير أساليبه في مواجهة الإسلام، فعمد إلى الغزو الفكري بدلاً من الغزو العسكري لتحقيق أهدافه الخبيثة، وخرج رجال الدين من جحورهم، والباحثون من معاهدهم، يهاجمون الإسلام، ويطعنون في القرآن الكريم، ويقدحون في شخصية الرسول (ﷺ) بقصد التنفير من الإسلام، ووضع الحاجز بينه وبين الشعوب النصرانية.

ولم يعرف في تاريخ البشرية أن توافر عدد من الباحثين - على مدى عدة قرون - اختلفوا عقيدةً ولساناً ووطناً على دراسة دين لا يؤمنون به كما فعل المستشرقون، كذلك لم يعهد أن مثل هؤلاء الباحثين على الرغم مما بينهم من اختلافات في العقيدة واللغة والوطن قد التقوا حول هدف واحد - غالباً - وكرسوا كل طاقاتهم لبلوغ الهدف.

وقد جاءت هذه الدراسة لتكشف حقيقة الاستشراق وروية المفكرين المسلمين له ، وبيان وسائل وسبل مواجهته.

واقترضت طبيعة البحث أن يكون بعد المقدمة على النحو التالي:

- التمهيد: التعريف بالاستشراق.
- المبحث الأول: الفكر الاستشراقي في نظر الكتاب المسلمين.
- المبحث الثاني: فئات المستشرقين.
- المبحث الثالث: وسائل الاستشراق.
- المبحث الرابع: سبل مواجهة الاستشراق.

والله - تعالى - أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينقل به موازيننا، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دكتور

ياسر محمد عبد اللطيف

مدرس الأديان والمذاهب

بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

التمهيد

التعريف بالاستشراق

يمثل الاستشراق حلقة الصراع الفكري بين الإسلام والغرب، فالدراسات الغربية المتعلقة بالإسلام - منذ نشأتها حتى الآن - تعد الرافد الأساسي لتكوين صورة عن الدين الإسلامي في بلاد الغرب.

مفهوم الاستشراق:

أولاً: في اللغة:

كلمة الاستشراق "مشتقة من مادة "شرق" يقال "شرقت الشمس" تشرق شروقاً وشرقاً، طلعت واسم الموضع المشرق^(١). وجاء في المصباح المنير^(٢):

شرقت الشمس: طلعت، وأشرقت: أضاعت ... والشروق: جهة شرق الشمس، والمشرق مثله.

وقد جاء في بعض المصادر اللغوية الحديثة "استشراق": طلب علوم الشرق ولغاتهم ... يقال لمن يعنى بذلك من علماء الفرنجة^(٣).

ولم تظهر كلمة "مستشرق في اللغات الأجنبية إلا في القرن السابع عشر الميلادي، حيث أطلق هذا اللفظ على أحد أعضاء الكنيسة في سنة ١٦٨٣م، وفي عام ١٦٩٦م وجدنا "أنتوني ود" يصف "صموئيل كلارك" بأنه استشراقي ناب، ويعنى بذلك أنه عرف بعض اللغات الشرقية. وفي خلال المجادلة التعليمية بالهند التي حسمها تقرير "ماكولي" الشهير سنة ١٨٣٤م كان المستشرقون هم الذين نادوا بالتعليم والأدب الهنديين، بينما سمي معارضوهم الذين رغبوا في أن تكون الإنجليزية أساس التعليم بالهند

(١) ابن منظور: لسان العرب ١٧٣/١ ط بيروت ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦م.

(٢) الفيومي: المصباح المنير ص ٤٢٢، المكتبة العلمية - بيروت لبنان.

(٣) أحمد رضا: معجم متن اللغة ٣/ ٣١٠ بيروت.

"المستعيزين"، وعلى هذا فالاستشراق في نظر آربي يـ يعني دراسة الشرق في لغاته وآدابه^(١).

وقد ظهرت كلمة مستشرق "Orientalist" في إنجلترا حوالي سنة ١٧٧٩م، وكلمة "Orientalist" في فرنسا سنة ١٧٧٩م، وأدرجت كلمة "Orientalism" الاستشراق في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٣٨م^(٢).

ثانيًا: في الاصطلاح:

- عرف الاستشراق في الأدبيات العربية بعدة تعريفات، أهمها ما يلي:
١. البحث الأكاديمي الذي يكتبه غربيون غير مسلمين عن الشرق الإسلامي.
 - والمستشرق: باحث غربي غير مسلم يكتب عن الشرق الإسلامي^(٣).
 ٢. علم الشرق أو علم العالم الشرقي^(٤).

ويرى الدكتور محمود زقزوق أن كلمة "مستشرق" بالمعنى العام تطلق على عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله ... في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه. أما المعنى الخاص الذي ينصرف إليه الذهن في العالم الإسلامي، فهو ما يطلق على: الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام^(٥).

(١) آرثور آربي: المستشرقون للبريطانيون، ص ٧، لندن.

(٢) مكسيم رودنسون: تراث الإسلام، تصنيف شاخت ويوزورث ١ / ٧٨ ت د/ محمد زهير، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م.

(٣) د/ عبد الحميد مذكور: نظرات في حركة الاستشراق، ص ١٥ القاهرة.

(٤) رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص ١١، دار الكتاب العربي للطباعة، القاهرة.

(٥) د. محمود زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص ٢٤ كتاب الأمة، قطر، ١٩٨٤م.

٣. مصطلح يطلق عادةً على اتجاه فكري يعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة، ودراسة حضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة^(١).

٤. تعبير أطلقه الغربيون على الدراسات المتعلقة بالشرقيين، شعوبهم تاريخهم، أديانهم، لغاتهم، أوضاعهم الاجتماعية، وبلادهم وأرضهم وحضاراتهم، وكل ما يتعلق بهم^(٢).

مناقشة الآراء السابقة:

يلاحظ من خلال التعريفات السابقة للاستشراق أنها تركز في - معظمها - على دراسة الشرق على وجه العموم، ودراسة الإسلام بوجه خاص، وهذا حسن في حد ذاته، غير أن ما يذكره بعض الباحثين من إطلاق مفهوم الاستشراق على الدراسات المتعلقة بالإسلام دون ما سواها - كما جاء في التعريف الأول - فهذا مفهوم قاصر؛ فالإسلام - على الرغم - أنه كان له نصيب وافر من كتابات الغرب وبحوثهم إلا أن حركة المستشرقين شملت حضارات شرقية أخرى غير الحضارة الإسلامية كحضارة الهند والصين .

أما إطلاق "لفظ" عالم على المستشرق، ووصف الاستشراق بكونه علم من العلوم فهذا فيه من الخلط ما لا يخفى، وذلك لسببين:

الأول: أن كثيراً من الدراسات الاستشراقية صدرت من قسيسين ورهبان، ولم تصدر جميعها عن علماء وباحثين.

الثاني: أن وصف الاستشراق بكونه علم يتنافى مع الحقيقة مع الحقيقة؛ لأن "العلم" بمعناه الدقيق لا بد له من منهج ثابت ذي ضوابط محددة، يلتزم بها العلماء، كما أن العلم لا بد له من موضوع وأهداف

(١) د. عدنان وزان: الاستشراق والمستشرقون، وجهة نظر، ص ١٥، سلسلة دعوة الحق، العدد (٢٤)، سنة ١٩٨٤م.

(٢) عبد الرحمن حبنكة: أجنحة المكر الثلاثة، ص ٥٠، دار القلم، دمشق، ط ٧ سنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.

واضحة يغلب عليها الطابع الإنساني الإيجابي، والدراسات الاستشراقية بالطبع لا تنطبق عليها مثل هذه الشروط.

والاستشراق في الواقع عبارة عن أيديولوجية خاصة يراد من خلالها ترويح تصورات معينة عن الإسلام بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على أوهام وافتراءات^(١).

وأرى أن كل الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق على وجه العموم، وبالإسلام على وجه الخصوص، سواء صدرت هذه الدراسات من علماء أو من غيرهم، أو كانت هذه الدراسات أكاديمية، أو غير ذلك يمكن أن يطلق عليها استشراق.

(١) د. محمود زقزوق: الإسلام والاستشراق، ص ٢١، مكتبة وهبة، سنة ١٤٠٤ هـ /

١٩٨٤م.

المبحث الأول

الفكر الاستشراقي في نظر الكتاب المسلمين

تنبه الكتاب المسلمون للفكر الاستشراقي في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، وصدرت مؤلفات عديدة تعكس رؤى المفكرين المسلمين المتباينة إزاء الفكر الاستشراقي، فبينما نرى بعض المفكرين يكيل عبارات المدح والثناء على المستشرقين، معترفاً لهم بالفضل في الحفاظ على التراث الإسلامي من حيث التحقيق والتصنيف والفهرسة، نرى البعض الآخر يتهمم بأنهم عملاء للاستعمار والتبشير، وأن ما قاموا به من أعمال تعد - في نظر البعض - بأنها جليلة ما هي إلا وسيلة لغاية أكبر، وهي تشويه محاسن الإسلام، ووضع حاجز بينه وبين الغرب، ولكل رأي أدلته.

الرأي الأول:

يذهب الدكتور طه حسين إلى أن أبحاث المستشرقين أبحاث علمية قيمة، وأن كل دارس لتراث الشرق لا يمكنه أن يقدم عملاً علمياً مفيداً إذا لم يقف على أبحاث المستشرقين، فيقول: وكيف نتصور أستاذاً للأدب العربي لا يلم، ولا ينتظر أن يلم بما انتهى إليه الفرنج (المستشرقون) من النتائج العلمية المختلفة حين درسوا تاريخ الشرق وأدبه ولغاته المختلفة، وإنما يلتمس العلم الآن عند هؤلاء الناس، ولا بد من التماسه عندهم حتى يتاح لنا نحن أن نهض على أقدامنا، ونطير بأجنحتنا، ونسترد ما عليه هؤلاء الناس من علومنا وآدابنا وتاريخنا^(١).

ويرى الدكتور زكي مبارك أن المستشرقين^(٢) طائفة من العلماء الجائدين يجب الاتصال بهم، وأنهم وإن كانوا طلائع المستعمرين إلا أن

(١) د. طه حسين: مقدمة الأديب الجاهلي، مجلد ٥، ص (١٢٨)، الأعمال الكاملة، ط دار الكتاب اللبناني بيروت.

(٢) د. زكي مبارك: نفع المستشرقين أكثر من ضررهم، ص (٣٢١)، مجلة الهلال، العدد الثالث، عام ١٩٣٣م.

المستشرقين الذين يعملون مع الاستعمار يتحولون مع الزمن إلى علماء، وتضعف فيهم النزعة الاستعمارية، وتغلب عليهم النزعة العلمية.

ويعترف الدكتور زكي مبارك بأن للمستشرقين أخطارهم في فهم التراث، كما أن لهم آراءهم الفاسدة في الإسلام وتعاليمه، وهي آراء تخدم بعض الهيئات الدينية، ولكنهم مع هذا خدموا الإسلام بخصومتهم له أجل الخدمات، فقد عمدوا إلى القرآن والحديث فطبعوا كل ما يتصل بهما من جيد المؤلفات، وفهرسوها وبوبوها ورتبوها ترتيباً تعجز عنه مشيخة الأزهر الشريف.

ثم يقول الدكتور زكي مبارك: وليس لدي ما يمنع من الاعتراف بأن أثر المستشرقين أبقى في ذهني وأوضح، وأن فضلهم عليّ أظهر وأرجح، ويستطرد فينصح الأمة بتأثر خطوات المستشرقين في غير زيغ ولا ضلال.

ويختتم رأيه في الاستشراق بقوله: وبعد فأنا لا أهون من أغلاط المستشرقين، ولا أدعو إلى متابعتهم في غير بصيرة ولا روية، ولكني أجزم بأن أعمالهم أدخلت كثيراً من عناصر الحيوية في الدراسات اللغوية والإسلامية، وليس في الدنيا شر خالص، ولا خير، وإنما النفع في أعمال هؤلاء الباحثين أقوى وأغلب^(١).

فالدكتور زكي مبارك يكاد - مع اعترافه بأخطاء الاستشراق وأنه طليعة الاحتلال، وله من الإسلام مواقف سيئة - يحصر نفعه وفضله في نشر الكثير من التراث الإسلامي الذي انتفعنا به بلا مرأى، وكذلك في المنهج العلمي في البحث، وأنا أخذنا بهذا المنهج عنه، وحاولنا به أن نهجد دراستنا ونطور حياتنا العلمية، وأن هذا الجانب يطغى على الجوانب السيئة في أعمال الاستشراق^(٢).

(١) السابق، ص (٣٢٢).

(٢) د/ محمد الدسوقي: الفكر الاستشراقي تاريخ وتقويمه، ص (١٢٥)، (بتصرف)، دار الوفاء، المنصورة ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.

ويستدل أصحاب هذا الرأي أيضاً بأن آراء المستشرقين الفاسدة دفعت كثيراً من علماء المسلمين إلى الذنب عن دينهم، وبيان ما يتكرر في دوائر المستشرقين من أفكار حول الإسلام، وقد نجم عن هذا بقطة فكرية إسلامية واجهت الشبهات والاقتراءات في قوة، وهذا يعني أن الجانب السلبي في الفكر الاستشراقي أثر إيجابياً في الفكر الإسلامي المعاصر.

الرأي الثاني:

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الاستشراق استهدف من خلال دراسته للإسلام اختلاق مواطن الضعف، ووضع الحجب القائمة بين الإسلام وبين الشعوب النصرانية.

يقول أحمد فارس الشدياق:

إن المستشرقين لم يأخذوا العلم عن شيوخه، وإنما تطفلوا عليه تطفلاً، وتوثبوا فيه توثباً ... ومن تخرج فيه بشيء فإنما تخرج على القس، ثم أدخل رأسه في أضغاث أحلام، أو أدخل أضغاث أحلام في رأسه، وتوهم أنه يعرف شيئاً وهو يجهله ... وكل منهم إذا درس في إحدى لغات الشرق أو ترجم شيئاً منها تراه يخط فيه خبط عشواء، فما اشتبه عليه منها رقعه من عنده بما شاء، وما كان بين الشبهة واليقين حدس فيه وخمن، فرجح من المرجوح، وفضل المفضول^(١).

يقول الأستاذ محمد الغزالي:

ولا يعرف العقل ولا المنطق حداً لما يقوم به المستشرقون من تحريف للتاريخ الإسلامي، وتشويه لمبادئ الإسلام وثقافته، وإعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله، وهم كذلك جاهدون بكل الوسائل لينتقصوا من الدور الذي أداه الإسلام في تاريخ الثقافة الإنسانية.

(١) أحمد فارس الشدياق: ذيل الفاريق، ص ٢، نقلاً عن (المستشرقون) ٣/ ٦٠٦.

إن المستشرقين فيهم قدر مشترك من هذا الخصام المتجني والتفاوت-
 إن وجد بينهم- إنما هو في الدرجة فقط، فبعضهم أكثر تعصباً ضد الإسلام
 وعداوة له من البعض الآخر، ولكن يصدق عليهم جميعاً أنهم أعداؤه^(١).

والحق أن من يقف على أسباب نشأة الاستشراق وأهدافه، وما صدر
 عنه من آراء فاسدة تجاه الإسلام يدرك أن المستشرقين لم يحسنوا إلينا بل
 أساءوا إلينا أبلغ الإساءة، وأن ما ساقه أصحاب الرأي الأول من أدلة على
 رؤيتهم لا ينهض كحجة أمام الدلائل المغايرة.

فأما ما يتعلق بنشر التراث وفهرسته والعناية به، فإن ما يعزى إلى
 الاستشراق من جهد في هذا المجال أمر مبالغ فيه من حيث الكم، فلا يكاد
 يتجاوز ما قام المستشرقون بطبعه من تراثنا إلا نحو عشرة بالمائة^(٢) من
 جملة ما نشر من هذا التراث، بجانب ما اتسم به المستشرقون من عدم
 الأمانة في النقل والترجمة.

ثم ماذا عن سبب نشر هذا التراث، والعناية به، ورصد الأموال اللازمة
 لذلك ... هل قصد المستشرقون بهذه العملية المنظمة خدمة الإسلام من خلال
 المحافظة على التراث والانتفاع به في تطوير حياتنا؟ لا شك أن هذا لا يعنيه في
 شيء، والاستشراق استهدف منذ نشأته خدمة الكنيسة، وكان منذ زمن بعيد مطية
 الاستعمار والتتصير، والعناية بالتراث كان وسيلة لدراسة نفسية للشعوب
 الإسلامية، حتى يكون تخطيط الفكر الاستشراقي في موقفه من هذه الشعوب
 قائماً على أسس علمية تحقق ما نصبوا إليه آمال المستشرقين وبولهم في
 الإحاطة بوسائل الإخضاع والسيطرة^(٣).

ومن أوضح الدلائل على أن الاستشراق لا يريد من وراء نشر التراث
 الإسلامي غاية علمية، وإنما يسعى لمهمة تبشيرية أن معظم ما اصطفاه
 من هذا التراث يعكس الاضطراب الفكري والسياسي بين المسلمين، ولذلك

(١) محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، ص ٨.

(٢) د/ عبد العظيم الديب: المستشرقون والتراث، ص (١٣)، ط دار الوفاء
 بالمنصورة.

(٣) د/ محمد الدسوقي: الفكر الاستشراقي، ص (١٤٩).

يتم بكتب الفرق والمصارعات السياسية والمذهبية ليقف على الظروف التي واكبت نشأتها، والعوامل التي ساعدت على نموها وتفاقم مشكلاتها، حتى يهيئ لها ما يجعلها حية متأججة الأوار، تشغل الأمة، وتستهلك قواها، وتستحوذ على فكر علمائها ولب قاداتها، فتضرب بينهم الفرقة، ويسود حياتهم الخلاف والشقاق^(١).

أما ادعاء البعض بأن الاستشراق وجه الفكر الإسلامي إلى الأخذ الأسلوب العلمي في البحث والدراسة ففي هذا ما يؤول إلى أن ذلك الفكر لم يعرف هذا المنهج، وأنه كان في نشاطه العلمي يسعى على غير هدى حتى جاء الاستشراق فأرشده إلى اتباع المنهج القويم، فهو بذلك قد أسدى إليه يدًا جليلةً وأنقذه مما كان قد ترد فيه من تقليد وهذا غير مسلم، فالفكر الإسلامي له منهجه الفريد في البحث والدرس، والتراث العلمي المسلمين خير شاهد على ذلك، وما كانت أوروبا قبل عصر نهضتها، وفي إبانها، لترسل رسائلها لنقل علومنا وترجمتها إلا لحاجتها لهذه العلوم، وإيمانها بأنها ذات منهج علمي لم تعرفه البشرية من قبل^(٢).

(١) د/ عبد العظيم الديب: المستشرقون والتراث، ص (٢٧).

(٢) د/ محمد الدسوقي: الفكر الاستشراقي، ص (١٥٣ - ١٥٤).

المبحث الثاني

فئات المستشرقين

خلفت الحركة الاستشراقية وراءها أجيالاً وفيرة من المستشرقين، ولم يكن هؤلاء المستشرقون في دراستهم للإسلام على درجة واحدة، بل كان بينهم تفاوت بعيد، فمنهم من قادتته الدراسة الحرة للنزيرة إلى الدخول في الإسلام، وبعضهم شهد لهذا الدين بالسمو والعظمة وبقي على ديانته، ونخبة كثيرة من المستشرقين هاجمت الإسلام بغلظة وتعصب.

وأرى أن المستشرقين من حيث تناولهم للقضايا الإسلامية ينقسمون إلى عدة فئات:

الفئة الأولى: أنصفت الإسلام واعتنقته:

هذه الفئة درست الإسلام دراسة حرة نزيرة، بعيدة عن التعصب والإجحاف مما دفعها إلى الدخول في هذا الدين، والإذعان له، ومن هذه الفئة رجال دولة وسياسة مثل الحاج اللورد هنلي الفارق (إنجلترا)، ومنهم علماء ورجال فكر مثل الدكتور علي سليمان بنوا (فرنسا)، والشيخ عبد الواحد يحي (رينيه جينو)، ومنهم مصلحون وعاظ مثل إسماعيل ويسلو، ومنهم الرسام إيتين دينه (الفرنسي)، وكذا الطبيب موريس بوكاي (فرنسا) أيضاً.

ولعل من المناسب ذكره نبذة عن سيرة بعض هؤلاء وطرف من أقوالهم في الإسلام:

١- إيتين دينيه (١٨٦١ - ١٩٢٩):

ولد هذا المستشرق بفرنسا، ونشأ بين أبوين مسيحيين، وتلقن - بطبيعته الحال - العقائد المسيحية نظرياً، ومارسها عملياً، وذهب به أبوه - ككل مسيحي - إلى التعميد وإلى الكنيسة، فشب وترعرع على عقيدة التثليث والصلب والفداء والغفران، وعلى مر الزمن أخذت تستبين فيه طبيعة الفنان، وأخذ يستولي عليه شعور بالقلق والحيرة من الناحية الدينية، مما دفعه إلى دراسة الإسلام والدخول فيه.

يقول إيتين دينيه في رسالة له بعنوان "أشعة خاصة بنور الإسلام" في معرض رده على الذين يزرون الحضارة الإسلامية: "إنهم يفخرون بالعالم الفرنسي (باستير)، ويجعلونه درة في تاج الحضارة الحديثة، ولكن فاتهم أن (جابرًا) و(الرازي) لا يقلان عنه في مرتبة العلماء والمفكرين، فهما المؤسسان الحقيقيان لعلم (الكيمياء) بفضل ما كشفاه عن طريق تقطير الكحول، ومن اكتشاف (حامضي النيتريك والكبريتيك) (١).

وفي كتاب له باسم "الشرق كما يراه الغرب" والذي نقله إلى العربية الأستاذ عمر فاخوري، ونشر بدمشق مع رسائل أخرى تحت عنوان: "آراء غربية في مسائل شرقية".

يقول دينيه: "إن الغرب يخطئ النظر إلى الشرق، مع أن للشرق على الغرب أفضالاً متأصلة في مدينته، متغلغلة في حياته، ذلك من أثر الدينيات التي هو مدين بها للشرق، ومن أثر الحياة الشريفة والهمة العالية التي منشؤها أنظمة الفروسية العربية، ومن أثر علم البحار وعلم السماء وعلم الأبدان، وعلم الكيمياء التي ابتدعت العقول الشرقية" (٢).

وينعي إيتين دينيه على المستشرقين الذين يدعون أن القرآن من تأليف الرسول (ﷺ) فيقول: حقاً إنه ليدهشني أن يرى بعض المستشرقين: أن محمداً انتهاز فرصة تحنثه في غار حراء فألف القرآن الكريم. أحقاً لم يلاحظوا أن هذا الكتاب الإلهي خال من أية خطة سابقة على وجوده، مرسومة على نسق المناهج الإنسانية، وأن كل سورة من سورته منفصلة عن غيرها، وخاصةً بحادثة وقعت بعد الرسالة، طويلة فترة تزيد على عشرين عاماً، وأنه كان من المستحيل على محمد أن يتوقع ذلك ويتبأ به؟

(١) انظر المقدمة التي كتبها د/ عبد الحليم محمود لكتاب "محمد رسول الله" ص (٣٧)، دار المعارف.

(٢) راشد رستم: مقال له عن إسحق دينيه نشر بجريدة الجمهورية بتاريخ ١٩ / ١٢ / ١٩٢٩م.

ولكنهم في جهلهم بالعقلية العربية لم يجدوا غير ذلك تعليلاً لهذا التحدث الطويل^(١).

وحول السمات الخاصة بالإسلام يقول إيتين دينيه: ومن مميزات الإسلام الأصلية ملاءمته لجميع الأجناس البشرية، فدين الرسول (ﷺ) قد أكد من الساعة الأولى لظهوره، وفي حياة النبي (ﷺ) أنه دين عام صالح لكل زمان ومكان، وإذا كان صالحاً بالضرورة لكل جنس كان صالحاً بالضرورة لكل عقل، إذ هو دين الفطرة والفطرة لا تختلف في إنسان عن آخر، وهو لكل هذا صالح لكل درجة من درجات الحضارة^(٢).

٢- موريس بوكاي:

درس هذا الطبيب التوراة والإنجيل والقرآن، وعقد مقارنة بين الكتب الثلاثة والمعارف الحديثة، وانتهى إلى أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يتفق مع معطيات العلم الحديث، مما دفعه إلى أن يعلن إسلامه.

يقول موريس بوكاي: لقد قمت بدراسة القرآن، وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن الكريم ومعطيات العلم الحديث، وكنت أعرف قبل هذه الدراسة وعن طريق الترجمان أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظواهر الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجيزة، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث.

وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأنجيل، أما بالنسبة للعهد القديم فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا، وبالنسبة للأنجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة في مواجهة مشكلة خطيرة، ونعني بها شجرة أنساب المسيح (ﷺ) وذلك أن نص إنجيل متى

(١) إيتين دينيه: محمد رسول الله، ص (١٠٧).

(٢) السابق، ص (٣٦٢ - ٣٦٣) بتصرف.

يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحةً أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدّم الإنسان على الأرض^(١).

ويواصل المستشرق موريس بوكاي الأكلة على إثبات أن القرآن الكريم من عند الله تعالى فيقول: إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة، وهناك الخلق وعدم الفلك، وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض وعالم الحيوان، وعالم النبات، والتناسل الإنساني على حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة، لا نكشف في القرآن أي خطأ، وقد دفعني ذلك لأن أتساءل: لو كان كاتب القرآن إنساناً، كيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة؟!^(٢).

الفئة الثانية: وهم الذين أنصفوا الإسلام ولم يعتنقوه:

فقد نظر هؤلاء إلى الإسلام نظرة إنصاف واعتدال، رغم أنهم لم يعتنقوه إلا أن كتاباتهم عن الدين وعن الرسول (ﷺ) كانت تتسم بالحيدة، وبعيدة عن التعصب في بعض الآراء.

يقول اللورد هيدلي: "إنني أعتقد أن هناك آفاقاً من الرجال والنساء أيضاً مسلمون قلباً، لكن خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد عن التعصب الناشئ عن التغيير تأمر على منعهم من إظهار عقيدتهم"^(٣).

وقد حفلت المؤلفات الإسلامية بذكر عدد وافر من هؤلاء المستشرقين، فمنهم على سبيل المثال لا الحصر، الكونت هنري دي كاستري "فرنسا" وتوماس كارليل "إنجلترا" وتولوستوي "روسيا" وغيرهم كثير، ومما يؤكد صحة القول بأن هؤلاء المستشرقين بعيدون عن التعصب ما نسب إليهم من أقوال منصفة تجاه الإسلام.

(١) موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص (١٣)، دار المعارف، ١٩٨٢م.

(٢) السابق، ص (١٤٣).

(٣) د/ عبد الحليم محمود: أوروبا والإسلام، ص ٥١. دار المعارف.

يقول المستشرق الكونت هنري دي كاستري:

"ما كان محمد (ﷺ) يقرأ ولا يكتب، بل كان كما وصف نفسه مراراً - نبياً أمياً - وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه، ولا شك أنه يستحيل على رجل في الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه أحد، لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان" (١).

ويقول كارليل:

لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن أن دين الإسلام كذب وأن محمداً مزور، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة (٢).

ويقول تولستوي:

لا ريب أن هذا النبي من كبار المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة، وكفيه فخراً: أنه هدى أمةً برمتها إلى نور الحق، وجعلها تنجح إلى السلام، وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا، وكفيه فخراً: أنه فتح الطريق للرقى والتقدم، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتي قوةً وحكمةً وعلمًا، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال (٣).

الفئة الثالثة: المهجفون بلا موارد (٤):

وهذه الفئة من المستشرقين تهاجم الإسلام بلا موارد، فهم لا يلجئون إلى الخداع كغيرهم، بل يجعلون كتاباتهم عن الإسلام تتضح حقاً، وتظهر سماً، ومن هؤلاء:

١- آريزي:

(١) الكونت هنري: الإسلام خواطر وسوانح، ط دار المعارف ١٨٩٨م، وأوربا والإسلام، ص ٥٢.

(٢) توماس كارليل: الأبطال، ص ٥٨، ت محمد السباعي، ص ٥٨ كتاب الهلال، العدد (٣٢٦)، سنة ١٩٧٨م.

(٣) د/ عبد الحليم محمود: أوربا والإسلام، ص ٥٦.

(٤) د/ محمد البيه: الفكر الإسلامي الحديث، ٤٤٧ - ٤٥٢.

إنجليزي معروف بالتعصب ضد الإسلام والمسلمين، ومن محرري دائرة المعارف الإسلامية، ومن المؤسف أنه أستاذ لكثير من المصريين الذين تخرجوا في الدراسات الإسلامية واللغوية في إنجلترا.

٢- ماكدونالد:

أمريكي من أشد المتعصبين ضد الإسلام، يصدر في كتاباته عن روح تبشيرية متأصلة، وهو من كبار محرري دائرة المعارف الإسلامية، ومن كتبه:
أ. تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية في الإسلام صدر سنة ١٩٠٣م.

ب. الموقف الديني والحياة في الإسلام، صدر سنة ١٩٠٨م.

٣- هنري لامس اليسوعي (١٨٧٢ - ١٩٣٧)

فرنسي من محرري دائرة المعارف، شديد التعصب ضد الإسلام والحقده عليه، مفرط في عداوته للإسلام وافتراءاته لدرجة أفلقت بعض المستشرقين.

٤- يوسف شلخت:

ألماني متعصب ضد الإسلام والمسلمين، له كتب كثيرة عن الفقه الإسلامي وأصوله، ومن محرري دائرة المعارف الإسلامية، ودائرة معارف العلوم الاجتماعية.

٥- راينهاردت دوزي:

مستشرق هولندي (١٨٢٠ - ١٨٨٢)، وهو في الأصل ينتمي إلى أسرة فرنسية، كان متضلعا في اللغات السامية، وعمل أستاذا للعربية في جامعة ليدين من عام ١٨٥٠ إلى عام ١٨٧٨م، وكان يكتب باللاتينية والفرنسية والإنجليزية، ومن مؤلفاته: تاريخ المسلمين في

الأنجلس، وتاريخ الإسلام منذ فجره حتى عام ١٨٦٣م، وكل كتاباته تتسم بالعداء للإسلام^(١).

الفئة الرابعة: المحضون من وراء الستار:

وهذه الفئة من المستشرقين تعد من أخطر الفئات، وتكمن خطورتها في أن أصحابها لا يتخذون الهجوم على الإسلام منهجاً في كل الأحوال، بل يعمدون في الغالب إلى دس عبارات القذح والذم بين ثنايا المؤلفات. يقول الدكتور علي حسن الخربوطلي عن هذا الصنف من المستشرقين:

"ولم تكن كل كتاباتهم إساءات، فهم أنكياء مهرة اقتصروا في إساءاتهم على سطور قليلة متناثرة بين صفحات الكتب العديدة، فكانوا كمن يضع السم في العسل، فأصبحت كتبهم كوباً من العسل الرائق اللون، الحلو المذاق، وفيه قطرات قليلة من السم كافية للقضاء على الحياة، وتجيء هذه السطور في ثنايا الكتاب، ولا يفتن إليها إلا متخصص متعمق، أو قارئ فطن لبيب، ولكن قد تفوت على القارئ العادي، وتؤدي إلى بلبلة العقول وتشويه الأفكار"^(٢).

وقد ظهر من الفئة المذكورة كثيرون، نخص بالذكر منهم:

١. سير هاملتون جيب (١٨٩٥ - ١٩٦٥):

إنجليزي من مواليد الإسكندرية بمصر، وخليفة "مرجليوث" في جامعة أكسفورد وعضو المجمع اللغوي بالقاهرة، وعضو المجمع العلمي بدمشق، وكان يكتب العربية بوضوح، ويروي بعض نصوصها في محاضراته وأحاديثه، وسافر إلى كل من فلسطين وسوريا والمغرب الأقصى.

(١) انظر د/ زقزوق: الإسلام في تصورات الغرب، ص (٢٨ - ٢٩)، مكتبة وهبة،

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

(٢) د/ علي حسن الخربوطلي: المستشرقون والتاريخ، ص ١٣٢ - ١٣٣.

ومن أهم مؤلفاته فتوح العرب في آسيا، و"ما هو الإسلام" لندن ١٩٣٢ م، و"اتجاه الإسلام" و"دراسات في الحضارة الإسلامية"، وله بالفرنسية كتاب "بنية الفكر الديني في الإسلام" (١).

وقد كانت مراواغاته سبباً في أن يتهمه بعض الغربيين بالتحيز للإسلام.

يقول الدكتور عبد الجليل شلبي:

وجيب يعتبر في نظر الغربيين متحيزاً للإسلام، وحين نشر كتابه عن المحمدية غضبت بعض الهيئات الدينية، فلبأت إلى "الفريد جيوم" فأخرج كتابه "الإسلام" ونشرته له دار النشر اليهودية بنجوين في أكثر من طبعة، وبيع بثمن زهيد رغبة في كثرة انتشاره (٢).

وأسلوب "جيب" القائم على المراوغة دفع كثيراً من الباحثين المسلمين إلى أن يشهدوا له بالحيدة والإنصاف.

فالأستاذ العقاد يعتبر "جيب" منصفاً غاية الإنصاف، ويشير إلى كتاب "الشرق الأدنى الإسلامي" الذي نشرته جامعة "تورنتو" بكندا لمجموعة من المستشرقين، منهم هاملتون جيب، ويعلق عليه بقوله: "أما البحث الشامل للوجهة العامة بين أطراف الشرق العربي الإسلامي من جميع نواحيه فهو الموضوع الذي قدمت به المجموعة، وعهد به إلى سير هاملتون جيب، فوفاه حقه من الدراسة العلمية، مع التزام الحيدة الواجبة في المسائل الدينية السياسية، وتتجلى هذه الحيدة من تعليق الكاتب على آراء الساسة الغربيين، وجلّ المفكرين الاجتماعيين الذين يصورون بها "حالة" الشرق الإسلامي بعد استقلال شعوبه عن سيطرة الدول الغربية، ثمّ يبنون عليها تقديرهم لمصير هذا الشرق كما يتصورونه أو يتمثلونه. فسير هاملتون جيب يرى أن الساسة الغربيين يعتبرون هذه الحالة حالة فراغ ينتظر الامتلاء كأنهم

(١) العقيد: المستشرقون ٢ / ٥٥١ - ٥٥٤.

(٢) د/ عبد الجليل شلبي: صور استشراقية، ص ٣٦، دار الشروق، ط ٢، سنة ١٤٠٦ هـ.

يحسبون أن خروج دولة من أحد الأقطار الشرقية يتبعه دخول دولة أخرى، أو يظل ذلك "القطر" فارغاً لا يستطيع أبناؤه أن يملئوه بنظام يعوضه عن النظام الأوروبي المفقود، ومما يدعو الساسة الغربيين إلى هذا التفكير شيوع الاعتقاد بين مراقبي الأحوال في البلاد الشرقية بانقضاء العهد الذي كان الذي كان الإسلام فيه "قوة فعالة" في تكوين النظم الاجتماعية والسياسية، باعتباره قسطاً مرجحاً في الشعائر المعمول بها، والفرائض المتبعة، والعادات السارية في شئون المعيشة اليومية^(١).

والإطراء المذكور في حق جيب من قبل العقاد لا ينسبنا أهداف الرجل، وبخاصة إذا وضع في الاعتبار أن العالم الإسلامي لا يشكل في الوقت الراهن خطراً سياسياً على الغرب، ولذلك لا يجد كثير من المستشرقين غضاضة في إنصاف الدول الإسلامية سياسياً من ذلك ما فعله "توينسي" حيث هاجم الكيان الإسرائيلي، وطالب العرب بضرورة التكاتف والاستماتة للقضاء عليه^(٢).

وحقيقة هاملتون جيب تظهر بوضوح من خلال تتبع كتاباته المغرضة، ففي كتاب له تحت عنوان "وجهة العالم الإسلامي" يقول: "لقد استطاع نشاطنا التعليمي والثقافي، عن طريق المدارس العصرية والصحافة أن يترك في المسلمين - لو عن غير وعي منهم - أثراً يجعلهم في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد! ولا ريب أن ذلك هو اللب المثمر في كل ما حوله الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته^(٣).

كما يتحدث "جيب" عن بنية الفكر الديني في الإسلام، فيقول: "إنما هي معظم ما كان لدى العرب في جاهليتهم من العقائد الغيبية، والطقوس الشكلية النابعة من اعتقادهم في الأرواح، قد تأمل محمد (ﷺ) فيها فغير ما أمكنه تغييره، ثم عمد إلى الباقي الذي استعصى عليه التخلص منه، فألبسه

(١) عباس العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص (٤١٦ - ٤١٧)، "المجموعة الكاملة"،

مجلد ٦، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

(٢) د/ محمد عبد الفتاح عليان: أضواء على الاستشراق، ص ١٠٠.

(٣) أحمد محمد جمال: مقترحات على الإسلام، ص ٣٦.

حلسة الدين الإسلامي، ودعم هذه العقائد والرموز بهيكل من الأفكار والمواقف الدينية الملائمة، ولما كان محمد يريد أن يشمل دينه الشعوب الأخرى غير العربية أدخل ذلك كله ضمن منهج القرآن، كما أن تضخم كتلة الحديث كان نتيجة لقوة التيار الديني في القرون الأولى ... حيث استمد محمد أكثر عناصر حديثه من التراث الديني المسيحي بل البوذي" (١).

ومن خلال هذه النصوص السابقة التي لا تحتاج إلى تفسير! يكشف هذا المستشرق عن نظريته الحقيقية تجاه الإسلام، ويثبت أنه لا صلة بينه وبين النصفة التي ينبغي أن يتحلى بها العلماء، لا شك أنه وغيره من أمثاله ما هم إلا مستشرقون على درجة عالية من المكر والدهاء.

٢. در منجم:

عُيِّن في وقت من الأوقات مديرًا لمكتبة الجزائر، كما أُلِّف هذا المستشرق الفرنسي عددًا من المؤلفات منها "حياة محمد" الذي نقله إلى العربية الأستاذ عادل زعير، وله كتاب محمد والسنة النبوية "باريس ١٩٥٥م" و"تاب زكريات الأمير عبد القادر ١٩٤٩م" (٢).

وقد حاز هذا المستشرق إعجاب كثير من الباحثين المسلمين، ووصف كغيره ممن على شاكلته بالحيدة والموضوعية:

يقول الأمير شكيب أرسلان: "وممن كتب في هذه السنين الأخيرة في موضوع السيرة النبوية المحمدية المسيو إميل درمنجم من كتاب الفرنسيين، وممن أقام ببلاد المغرب وخالط المسلمين، وهو إن كان مسيحيًا كاثوليكيًا فمن المسيحيين ذوي الوجدان والميل إلى الإنصاف، ولما أقدمت الحكومة الفرنسية في المغرب على إلغاء الشريعة الإسلامية من بين البربر، وأخذت تتشبت بالوسائل المتعددة لأجل إخراجهم من الإسلام وتربيتهم في النصرانية، كان هذا الكاتب ممن أقاموا النكير على هذه

(١) السابق، ص ٣٥.

(٢) المستشرقون: ١/ ٢٩٧ - ٢٩٨.

السياسة، ورآها مخالفة لمصلحة فرنسا، وماسة بكرامتها في العالم، وقد نشر رأيه هذا بدون محاباة في الجرائد^(١).

الموضوعية عند المستشرقين:

يدرك المرء من خلال كتابات الغرب حول الإسلام أنها تحوي في بعض الأحيان إنصافاً للإسلام، واعتدالاً في الأقوال تجاه الرسول (ﷺ)، ولعل ما ذكره المستشرق سير توماس أرنولد (١٨٦٤ - ١٩٣٠) في كتابه الدعوة إلى الإسلام يعد تعبيراً صادقاً عن تلك الوجهة، فقد حوى هذا الكتاب فصولاً قيمة، عالج من خلالها المؤلف أفكاراً غالباً ما يركز عليها المستشرقون القدامى منهم والمحدثون في مواجهة الإسلام.

فقد دلل أرنولد على عالمية الدعوة الإسلامية، وأبرز جانباً من تسامح المسلمين تجاه الأديان الأخرى، وأوضح أن الإسلام لم يكن وليد البيئة والظروف التي نشأ فيها - كما يزعم المستشرقون - وغير ذلك من القضايا الإسلامية.

أما عن الموضوعية بمفهومها المتعارف عليه، والتي تعني في أبسط تعاريفها إعطاء كل ذي حق حقه، والتعامل مع الغير بالقسطاس المستقيم، وهذا ما عناه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢) بهذا المعنى - أي الموضوعية - أرى أنه لا وجود لها في كتابات المستشرقين، وأن ما جاء من إنصاف للإسلام في بعض كتابات المستشرقين ليس إلا شذوذاً عن القاعدة العريضة في كتابات الغرب عن الإسلام.

وقد حاول بعض المستشرقين إضفاء الصبغة العلمية على كتاباتهم من ذلك ما أورده المستشرق الألماني رودري بارث قائلًا: "نحن معشر

(١) السيرة النبوية وكتاب حياة محمد لأميل در منجم، ص (٤٤)، ضمن كتاب حاضر

العالم الإسلامي، ج ١ - تأليف لوثرروب ستودارد.

(٢) سورة المائدة، الآية رقم (٨).

المستشرقين عندما نقوم بدراسات في العلوم العربية والإسلامية لا نقوم بها قط لكي نبرهن على ضعة العالم العربي والإسلامي، بل على العكس، نحن نبرهن على تفكيرنا الخاص للعالم الذي يمثل الإسلام ومظاهره المختلفة، والذي عبر عنه الألب العربي كتابة، ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهنه، دون أن نعمل فيه النظر، بل نقيم وزناً فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي، أو يبدو وكأنه يثبت أمامه، ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية التي نشغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا، وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن، وإذا أنت إمكانيات معرفتنا محدودة - وهل يمكن أن تكون إلا كذلك؟- فإننا نؤكد بضمير مطمئن أننا في دراساتنا لا نسعى إلى نوايا جانبية غير صافية، بل نسعى إلى البحث عن الحقيقة الخالصة" (١).

وهذا الكلام المتقدم لا يحتاج إلى معاناة في محضه، فالمستشرق يعترف صراحةً بضحالة ثقافة المستشرقين وضعف إمكانياتهم، إذن فكيف يتمكن هؤلاء وهم على هذه الحالة من دراسة تراث المسلمين بما يحوي من علوم متنوعة؟

أما ما يذكره - بارت - من تطبيق مناهج الغرب عند التعامل مع المصادر الإسلامية فهذا إن صلح في نقد تراث الغرب فهو لا يستقيم تجاه التراث الإسلامي؟

ولو افترضنا - على سبيل الجد - أنه يصلح مع بعض العلوم فهل طبقه المستشرقون كما ينبغي؟

إن منهج النقد التاريخي في الغرب (المنهج الاستردادي) يعتمد على النقد القائم على التحلي والتحصيل والتوثيق، وقد قسم علماء الغرب المنهج التاريخي إلى نقد خارجي ونقد باطني:

فالنقد الخارجي مثلاً يقصد به: التحقق من صحة الوثائق، وهل الوثيقة موضوع التحقيق كتبها صاحبها فعلاً؟ وهل كتبت بخطه أم بخط غيره؟

(١) بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص ١٠.

وهل دخلها الحشو والإضافة؟ وهل هذه الإضافة من باب الشرح أم من باب الإكمال؟ وهل دخل تحريف في النص الأصلي أو تزوير؟ وهل هو تحريف جزئي بدس كلمة أو إبدالها؟ أم أنه انتحال كامل وشامل للنص؟ وهل هذه الأخطاء مقصودة أم أنها بسبب خطأ في النسخ؟ إلى غير ذلك من ألوان التحري عن سلامة النص .. ولهذا اشترط من يتصدى لهذا النقد أن يكون ملماً باللغة التي كتب بها النص، وبالخطوط التي كانت سائدة، وأن يكون ملماً بالأخطاء الشائعة في كتابة اللغة التي دون بها النص^(١).

فهل تعامل المستشرقون عند الكتابة عن الإسلام بهذه الدقة؟

إن الدلائل تثبت أنه لا موضوعية في كتابات المستشرقين، وذلك لما يلي:

أولاً: تدوين التراث الإسلامي باللغة العربية:

ومما يدل على فقدان الموضوعية في كتابات المستشرقين أن التراث الإسلامي مدون باللغة العربية، وإن كان بعض المستشرقين يجيد اللغة العربية قراءةً وكتابةً إلا أن الغالبية العظمى منهم لا يتسنى له الإحاطة بمرادفاتها وألفاظها وأسرارها مما يوقعه في التفسير الشاذ والتأويل البعيد عن الصواب.

يقول دكتور علي إبراهيم النملة معلقاً على هذا الأمر:

وهذا جانب، كثيراً ما وقع فيه بعض المستشرقين الذين لم يتقنوا العربية بنحوها وصرفها، وبيانها وبديعها، ففهموا نصوصاً فهمًا غير مقصود، وبنوا على هذا الفهم قضاياهم ونظرياتهم، ويؤكد على هذا كذلك رجوع البعض إلى بعض النصوص العربية التي كتبت قبل ظهور فكرة "التقيط" للحروف فكان أن ساعد ذلك على أن ينحرفوا في الفهم^(٢).

ثانياً: يؤكد الواقع أن العلمية والجامعية لا يمكن أن تتوافر في المستشرقين إذ أننا لو بحثنا عن حقيقة الغالبية العظمى من المستشرقين لوجدنا أن أكثرهم ليسوا من أهل العلم، أو من المتخصصين في حقول

(١) د/ حلمي صابر: مناهج البحث العلمي، ص ٤٥.

(٢) د/ علي إبراهيم النملة: الاستشراق في الأدبيات العربية، ص ١١٣.

الدراسات الإنسانية من تاريخ ولغات وآداب، بل إن معظمهم من المبشرين، وموظفي الاستعمار كالضباط والأطباء، وأصحاب الوظائف المدنية الرفيعة في دواوين الدول الغربية، كما وجد من بين المستشرقين صحفيون وكتاب وقسس ورهبان^(١).

ثالثاً: تطبيق المناهج المادية عند التعامل مع القضايا الإسلامية:

يلجأ المستشرقون دائماً إلى تطبيق المناهج المادية عند تعاملهم مع القضايا الإسلامية، فهم لا يقولون عن الحديث مباشرة كلاً ما نسبوا، ولكنهم يعمدون إلى رجاله الذين عدّهم المسلمون ثقات وأخذوا عنهم الحديث فيشككون في علميتهم، وطرق جمعهم للمادة العلمية، التي كانت أصلاً لإنتاجهم العلمي، الذي حفظوا منه حديث رسول الله (ﷺ) بعد أن اتبعوا في ذلك أساليب التوثيق التي لم تتوافر لأي ثقافة أخرى، وهم - أي المستشرقون - يعمدون إلى ذلك محكمين جوانب مادية بحتة ربما وازنوها بالجوانب المادية البحتة التي كانت متوافرة لديهم في الوقت الذي يكتبون فيه عن علماء الحديث، فيبدعون التشكيك في أسلوب البحث الشخصي عن رواة الحديث والسفر إليهم، محتجين بأن ذلك من الصعوبة بمكان، في وقت لم تكن فيه وسائل المواصلات الحديثة متوافرة آنذاك، وهم بذلك يقيسون مقدرة أولئك العلماء على البحث والتوثيق على مقدرتهم هم فيما لو وجدوا في عصر أولئك العلماء، وهم بذلك يغفلون الجانب الروحي الذي كان الحافظ الوحيد لتدوين العلوم الإسلامية^(٢).

رابعاً: لا يعتمد المستشرقون على الدقة في النقل وتحرير النصوص، وكثيراً ما يعتمدون على الأحاديث الضعيفة، وهم ينقبون في طوايا كتب التاريخ والسير عن الأخبار الضعيفة يدعمون بها آراءهم، ولهم صبر لا ينفد في استكشاف هذه المخبوءات، واستغلال الضعيف من الدلالات،

(١) د/ عدنان وزان: الاستشراق والمستشرقون، ص ١٣١.

(٢) د/ علي إبراهيم النملة: الاستشراق في الأدبيات العربية، ص ١١١.

ومهما يكن من شيء فهم لا يستوعبون دراسة ما بأيديهم من المسائل، وكثيراً ما يغفلون النصوص والأخبار التي تناقض ما يقررون^(١).

يقول الدكتور/ محمود زقزوق: "وهذا بطبيعة الحال أمر ليس من العلم في شيء، وإنما هو انحراف عن المنهج العلمي السليم، وهذا الانحراف هو لأكسف طابع الكثير من الدراسات الاستشراقية حول الإسلام"^(٢).

خامساً: مما يفقد الثقة في كتابات المستشرقين أنهم يبنون أحكاماً مسبقة، ويتصيدون الأدلة لها بصرف النظر عن صحة الأدلة أو بطلانها.

يقول الدكتور/ عبد الحليم عويس:

من أبرز معالم المنهج الاستشراقي الاتفاق المسبق، والتعاون الجماعي على ترويج الأكاذيب عن الإسلام، وإضفاء الصبغة العلمية على هذه الأكاذيب، واستعمالها بطريقة تلقائية شبه عفوية، بحيث تبدو كأنها حقائق بديهية، وحتى ينشغل المسلمون بها وبموقف الدفاع انشغالاً دائماً يمنعهم من اتخاذ موقف البناء^(٣).

سادساً: يعتمد كثير من المستشرقين في تعاملهم مع الإسلام على المناهج الغربية التي يتم من خلالها إخضاع الدين للعقل كما هو قائم في الغرب، وهذا ما دفع المستشرقين إلى نقد القرآن والسنة، وهذا المنهج إذ جاز تطبيقه على اليهودية والنصرانية، فلا يصلح أبداً تجاه الإسلام؛ "إذ من المعروف لنا كمسلمين أن اليهودية والنصرانية تم تحريفهما على يد المعتقدين فيهما، وتحولت الديانتان بسبب كثرة التبديل والتحريف من ديانتني وحي يحترم العقل ويحض عليه إلى ديانتين أسطورييتين خرافيتين، وذلك لكثرة ما دخل فيهما من معتقدات وثنية، ومن عناصر دينية غريبة على التوحيد والوحي وبعيدة عن متناول العقل الذي فشل في تقديم

(١) د/ إبراهيم اللبنا: المستشرقون والإسلام، ص ٣٣.

(٢) د/ محمود زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية، ص ٩٤.

(٣) د/ عبد الحليم عويس: العقل المسلم في مواجهة الصراع الفكري، ص ١٥ دار

الوفاء ط٢، سنة ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

تبريرات عقلية للمواد الأسطورية الوثنية التي تسربت إلى الديانتين، وقد فشلت الديانتان في الاختبار العقلي الذي نصبه لهما عصر النهضة الأوروبية بحبائله وشباكه العقلية البحتة، وخلال هذه الحملة العقلية على اليهودية والنصرانية تم إخضاع كتبها المقدسة للدراسة العقلية الناقدة، واتضح من خلالها أن العهد القديم والعهد الجديد كتابات من وضع الإنسان، وفيهما الكثير من الخلط والتحريف، والمادة غير العقلية التي تسربت إليهما من الوثنيات المحيطة ببيئة الديانتين في الشرق الأدنى القديم، وبناءً على هذا اعتقد المستشرقون - جهلاً منهم - أن ما تم تطبيقه على اليهودية والنصرانية يمكن تطبيقه على الإسلام^(١).

وهذا قياس مع الفارق؛ إذ إن الإسلام هو وحي الله - تعالى - الذي أنزله من السماء، والذي تعهد - جل وعلا - بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرُكِّمُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٢).

والإسلام دين ثابت لم يتأثر بالبيئة التي نشأ فيها، كما أن شريعته راسخة لا تقبل التغيير أو التطوير، وتعاليم الإسلام لا تصطدم مع العقول السوية أو الفطرة النقية، ومن ثمّ فما يجري على غيره من النقد لا يمكن أن ينطبق عليه، وهذا من أجل الأدلة على عدم الموضوعية في دراسة المستشرقين للإسلام.

سابعاً: ومما يدل على انتفاء الموضوعية في كتابات المستشرقين، أن الدارس للإسلام منهم إما أن يكون علمانياً أو شيعياً، أو يهودياً أو نصرانياً، وكيف يستأني لواحد من هذه الطوائف أن يكون منصفاً للإسلام؟.. فالحرب على أشدها بين الحق والباطل، والعداء قائم بين الأمم الكافرة والإسلام والحق موجود بين المستشرقين والمسلمين.

(١) د/ محمد خليفة حسن: آثار الفكر الاستشراقي، ص ١٦، ١٧.

(٢) سورة الحجر، الآية ٩.

المبحث الثالث

وسائل الاستشراق

تأخذ المستشرقون وسائل متعددة وطرق متنوعة لنشر أفكارهم حيث أنهم، وذلك منذ بداية الحركة الاستشراقية حتى اليوم، ومن أهم هذه الوسائل ما يلي:

أولاً: إنشاء كراسي اللغات الشرقية في الجامعات الغربية:

يكاد يكون هناك في كل جامعة أوروبية أو أمريكية معهد خاص للدراسات الإسلامية العربية، بل يوجد في بعض الجامعات أكثر من معهد للاستشراق مثل جامعة ميونخ، حيث يوجد بها معهد للغات السامية والدراسات الإسلامية، ومعهد لتاريخ وحضارة الشرق الأدنى، ويرأس كل معهد أستاذ، وتقوم هذه المعاهد بمهمة التدريس الجامعي، وتعليم العربية، وتخريج الدارسين في أقسام الماجستير والدكتوراه، ممن سيواصلون أعمالهم في مجال الاستشراق الأكاديمي، أو غيره من مجالات أخرى في السلك الدبلوماسي، أو الالتحاق بأعمال في الأقسام الشرقية بدور الكتب، أو في مراكز البحوث المهمة بالشرق، ولكل معهد مكتبة عامرة بالكتب والمراجع الإسلامية، تخدم الدراسات والبحوث العلمية، وتفتح هذه المعاهد أبوابها للدارسين في كل مكان، ومنها يتخرج أيضاً بين الحين والحين أعداد لا بأس بها من العرب المسلمين، الذين يعودون إلى بلادهم لتولي مهمة التدريس في جامعات بلادهم^(١).

ثانياً: المؤلفات الإسلامية:

ألف المستشرقون كتباً عديدة في شتى العلوم الإسلامية بدءاً من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، بالإضافة إلى العلوم المنبثقة منها.

يقول العقيلي:

"وللمستشرقين في الإسلام ونبيه وخلفائه وفرقه وعلومه وآدابه، وفلسفته وفنونه من التحقيقات والترجمات، والمصنفات بلغات عديدة، وفي

(١) د/ محمد زقروق: الاستشراق والخلفية الفكرية، ص ٧١ - ٧٢.

بلدان كثيرة، وعلى مدى أجيال متواصلة ما لو جمع بعضه إلى بعض لتألفت منه مكتبة حاقة بالكتب" (١).

ولا سبيل إلى حصر هذه المؤلفات التي حوت معظمها سموماً وأكانيب يخرجها عن دائرة العلم والموضوعية. لكن نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر أبرز ما دون في القرآن الكريم والرسول (ﷺ).

١. القرآن الكريم:

كتب كثير من المستشرقين على اختلاف مدارسهم وأجيالهم في القرآن الكريم، ومن هؤلاء: مورينو (٢) وله "ترجمة المسلمين للقرآن" (١٩٢٥)، وفرجينيا وله "آيات من القرآن" (١٩٤٣)، ويوزاني (٣) وله "القرآن" (١٩٥٧)، ودي فو (٤) وله "بحيرا الراهب والقرآن" (١٨٩٨)، وروديل (٥) وله "ترجمة القرآن" (١٨٣٣)، والسير ولیم موير (٦)، وله "شهادة القرآن لكتب أنبياء الرحمن" (١٨٦٠).

(١) العقيلي: المستشرقون، ٣ / ٥٣١.

(٢) مورينو ولد سنة ١٨٩٢م وتعلم العربية في إيطاليا وأتقنها في ليبيا ومصر السودان والعراق، ومن آثاره كتيبة ودمنة، والنظم الإسلامية، والتصوف العربي، والإسلام، وفقه الإباضية، والتصوف العربي والهندي، وعقيدة الزيدية: المستشرقون ١ / ٤٤٥.

(٣) ولد يوزاني عام ١٩٢١ وتعلم اللغات الشرقية، وعين مدرسا للغة الفارسية في جامعة روما، ومن آثاره الإسلام، والأدب الإسلامي، والإسلام والحضارة الغربية، وله كتاب البهائية، المستشرقون ٢ / ٤٥٦.

(٤) دي فو (١٨٦٧ - ١٩٥٣) درس العربية في المعهد الكاثوليكي، عني بالرياضيات والفلسفة والتاريخ، ومن آثاره: الرياضيات وعلم الفلسفة، ومحاضرات في العربي، وله كتاب في الإسلام والعقيدة السامية والآرية، المستشرقون: ١ / ٢٣٨.

(٥) مستشرق إنجليزي متعصب من آثاره: ترجمة القرآن وفقاً لترتيب نزول الآيات تاريخياً: المستشرقون: ٢ / ٦٣.

(٦) موير (١٨١٩ - ١٩٠٥) استكندي تعلم الحقوق في جامعتي إجلانجو وأنديرا، وعين رئيساً لجامعة أنديرا، وله سيرة النبي (ﷺ) والتاريخ الإسلامي وله دولة

٢. الرسول (ﷺ):

خص رسول الله (ﷺ) بمؤلفات عدة من جانب المستشرقين، من أهمها "حياة محمد" لجانسيه^(١)، و"الأبطال" لكارليل^(٢)، و"محمد (ﷺ) في مكة" لمونتجومري^(٣)، و"محمد (ﷺ) ونهضة الإسلام" لمرجيبوث^(٤)، و"حياة محمد" لدير منجم^(٥).

ثالثاً: المجالات الشرقية في الغرب:

يصل عدد المجالات الشرقية إلى عشرات المجالات، نتناول هذه المجالات في مباحثها الشرق في لغاته وأديانه وعلومه، وآدابه وفنونه، وهذه المجالات لم تقف عند حد نشر الفكر الاستشراقي فقط بل تجاوزت

الممالك في مصر نقله إلى العربية الأستاذان محمود عابدين وسليم حسن، وكتب عدة مقالات عن شعراء العرب: المستشرقون: ٥٩ / ٢.

(١) جانسيه (١٦٧٠ - ١٧٤٠) ولد بباريس، وتعلم العربية والعبرية، وتخرج من كلية دي نافار، وحصل على الماجستير من كمبريدج، ودرس العربية في أكسفورد، ومن آثاره: رسالة الرازي عن الجدري، وتاريخ اليهود، ونشر المختصر لأبي للفداء، المستشرقون: ٤٥ / ٢.

(٢) كارليل مستشرق إنجليزي منصف إلى حد ما (١٧٩٥ - ١٨٨١)، وبعد كتاب الأبطال المؤلف في سنة ١٨٤٠م من أهم مؤلفاته عقد فيه فصلاً رائعاً عن الرسول (ﷺ)، ونقله إلى العربية محمد السباعي. المستشرقون: ٥٣ / ٢.

(٣) مونتجومري عميد قسم الدراسات العربية في جامعة إندبرا، ومن آثاره اللغة العربية، ومن تاريخ الجزيرة العربية، وعوامل انتشار الإسلام، والجدل الديني: وتاريخ أسبانيا الإسلامية، ومحمد في مكة. المستشرقون ١٣٢ / ٢.

(٤) مرجيبوث (١٨٥٨ - ١٩٤٠) ولد وتوفي في لندن وتخرج في جامعة أكسفورد، ورأس تحرير مجلة الجمعية الملكية الآسيوية، انتخب عضواً بالجمعية العلمي بدمشق، ومن مؤلفاته: الإسلام والعلاقات بين العرب والإسلام، وسيرة عبد القادر الجيلاني، وهاروت وملوت، وأصول الشعر العربي. المستشرقون ٧٧ - ٧٨.

(٥) د/ منجم مستشرق فرنسي عاش بالجزائر، ومن آثاره: حياة محمد، ترجمة عادل زعير، وله محمد والسنة الإسلامية، وسيرة الأولياء المسلمين، وله أولياء الكهف، وأولاء الجبل، وقصص القبلة. المستشرقون: ٣٤٨ / ١.

ذلك إلى نشر المخطوطات والوثائق، ومحاضرات كبار المستشرقين، وتقويم الكتب في الشرق والغرب، ومن أهم هذه المجالات ما يلي:

١. المجالات الإنجليزية:

كثرت عدد المجالات الإنجليزية حيث شجع الساسة الإنجليز على إنشائها، من أهمها:

أ. الجمعية الآسيوية في بمباي برئاسة ماكنتوس، وقد صدرت في عام ١٨٠٤م.

ب. الجمعية الملكية الآسيوية (١٨٣٤)، وهي تصدر في كل ثلاثة شهور، وتعنى بالعلوم والآداب والفنون الشرقية.

ج. مجلة اتحاد المستشرقين البريطانيين صدرت في سنة (١٩٤٦).

٢. المجالات الفرنسية:

لفرنسا مجالات خاصة بالاستشراق، تصدر في باريس والشرق الأدنى، وشمال إفريقيا منذ عهد بعيد، ومن أشهر هذه المجالات ما يلي:

أ. صحيفة العلماء (١٦٦٥).

ب. المجلة الآسيوية (١٨٢٢).

ج. المجلة الأفريقية (١٨٥٩).

٣. المجالات الأمريكية:

اهتمت الولايات المتحدة الأمريكية منذ القرن الثامن عشر بالمؤسسات الاستشراقية، فأنشأت الكراسي للدراسات الشرقية، وأقامت المكتبات، ونشرت المجالات التي تضم كتابات المستشرقين الأمريكيين، ومن أهم هذه المجالات ما يلي:

أ. صحيفة الجمعية الأمريكية الشرقية (١٩٠٦).

ب. صحيفة دراسات الشرق الأدنى (١٩٤٢)، وقد حلت محل صحيفة اللغات والآداب السامية (١٩٠٥).

ج. صحيفة الشرق الأوسط (١٩٤٧)، ويصدرها معهد الشرق الأوسط في واشنطن.

د. صحيفة العالم الإسلامي (١٩٥٥)، وقد حلت محل عالم الإسلام التي أنشأها ماكثوند وزويمر في هارتفورد (١٩١١).

والواقع أن معظم الدول الغربية^(١) عيّنت بإصدار الصحف والمجلات والنشرات التي تظهر الجانب الاستشراقي، من خلال أبحاثها، وإن كانت لا تخفي الهدف التصيري الواضح، وخدمة الاستعمار الغربي.

رابعاً: الموسوعات العلمية:

بذل جهابذة المستشرقين جهوداً مضيئة استغرقت عشرات السنين، من أجل إخراج الموسوعات العلمية، والقواميس والمعاجم، وهذه الموسوعات تحمل كثيراً من الخلط والتحريف المتعمد تجاه الإسلام، وتعد هذه الموسوعات من أجل وسائل الفكر الاستشراقي، وبخاصة أن بعض المنقّبين المسلمين يعتمدون عليها، ويعنونها مراجع علمية، ومن أهمها ما يلي:

١. دائرة المعارف الإسلامية:

دعا المستشرقون منذ عام ١٨٩٥م إلى إنشاء دائرة معارف لأعلام العرب والإسلام، حيث كلف المستشرق هوتسما^(٢) من جامعة أوترخت بإنشائها، وعيّنت مطبعة ليدن بإصدارها، واستعين بالجامع ومؤسسات نشر العلم في أوروبا قاطبة للإتفاق عليها، وقد أشرفت على تحرير دائرة المعارف التي استمرت عدداً من السنين بعد هوتسما المستشرق الهولندي

(١) لمن أراد المزيد والاطلاع على هذه المجالات فليراجع كتاب العقيقي بأجزائه الثلاثة.

(٢) مستشرق هولندي (١٩١٣ - ١٩٢٤) كان يتمتع بعضوية عدد من الجامعات العلمية، منها للمجمع العلمي بدمشق، وقد نشر عدداً من المخطوطات العربية، منها: تاريخ يعقوبي كما ساعد في نشر الطبري في خمسة عشر جزءاً، وله أيضاً: مؤلفات في الأدب العربي والتاريخ الإسلامي. انظر: د/ محمود زقروق. الإسلام في تصورات الغرب، ص ٦٥، مكتبة وهبة.

فينسينك، وحررت دائرة المعارف باللغات الأجنبية الثلاث: الألمانية والفرنسية والإنجليزية^(١).

وقد عنيت دار الشعب بالقاهرة بترجمة وطبع دائرة المعارف، وذلك منذ عام ١٩٣٣م، وظهرت الطبعة الثانية في عام ١٩٦٩م، وهي من إعداد وتحرير إبراهيم خورشيد وأحمد الشناوي والدكتور عبد الحميد بونس.

ودائرة المعارف مليئة بالطعن في الإسلام، والحق والتعصب على الرسول (ﷺ)، وقد أشار العلامة محمد فريد وجدي إلى القصد المتعمد في الجمع بين أساطير البدع وحقائق الشريعة، فقال: إن أكثر كتّاب الدوائر قسّس بهمهم أن يحيفوا الإسلام لا أن ينصفوه .. وليس كتّاب الدوائر وحدهم من هذا النمط، بل جل المشتغلين بالدراسات الإسلامية في الغرب لا يتجاوزون صناعة التبشير تعرفهم من لحن القول^(٢).

٢. قاموس المنجد:

قاموس المنجد يشتمل على قاموسين، قاموس للألفاظ اللغوية، وهو مليء بالأخطاء اللغوية، وقاموس أطلق عليه "معجم الآداب" أعده فردينال توتل، وهو القاموس الحافل بالأخطاء والشبهات، والذي عرض له عدد من الباحثين، وكشفوا عن أخطائه في مقدمتهم العلامة "عبد الله كنون" الذي نشر في مجلة الحق المغربية أكثر من عشرة فصول، تضم أكثر من أربعمائة خطأ شائع تاريخي وعلمي^(٣).

وأسوأ ما في القاموس مادة "محمد" وهي في عباراتها تتضح بالتعصب والحق وفساد المنهج، والبعد عن العلمية والإنصاف.

يقول المؤلف: "محمد (ﷺ) نبي المسلمين من بني هاشم، تزوج من خديجة، ورزق منها فاطمة، دعا الأعراب إلى الإسلام، وانتصر على

(١) الحقيقي: المستشرقون ٣/ ٢٧٠ - ٢٧١.

(٢) أنور الجندي: سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، ص ١٨، ط مكتبة التراث الإسلامي.

(٣) أنور الجندي: سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، ص ٢١.

المكبين في بدر، ولكنهم غلبوه فحاربهم في حنين ودخل مكة ظافراً، وقد حفل القاموس بعدد من المصطلحات الكنسية واللاهوتية التي ليست لها أصول عربية، كعبارة "جذف" وهو اصطلاح كهنوتي لم يذكره أهل اللغة، وكذا كلمة "قداس" وغير ذلك من عبارات الكهان النصارى^(١).

٣. دائرة معارف الدين والأخلاق:

وهي موسوعة تتحدث عن جميع الديانات والعقائد الموجودة في هذا العالم، وقد خصص جزء منها للدين الإسلامي، والذي تم فيه تصوير الإسلام بصورة حقيرة وهزيلة فيما يخص أخلاقيات الإسلام، وخصوصاً في تصوير قضية تعدد الزوجات في الدين الإسلامي^(٢).

٤. دائرة معارف العلوم الاجتماعية^(٣):

وبها الكثير من الموضوعات التي تتصل بالحياة الاجتماعية للأمم والشعوب المختلفة، وكيفية بناء كل مجتمع، وما فيه من تقاليد، بعضها له أصل في الدين، وبعضها لا أصل له، والجزء الذي يتعلق بالحياة الاجتماعية في الإسلام من إعداد المستشرق الإنجليزي "آرنولد نويتي" المعروف بتحامله على الإسلام.

٦- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث:

ينسب هذا العمل إلى المستشرق الهولندي فينسينك، ويرجع تاريخ الفكرة إلى عام ١٩١٦م، وقد خرج المعجم في ثمانية أجزاء، ظهر الجزء الأول منها سنة ١٩٣٦م، والأجزاء الأخرى بعد وفاة فينسينك، وظهر الجزء الأخير عام ١٩٦٩م تحت إشراف عدد من المستشرقين^(٤).

وقد كثر التهويل بهذا المعجم حتى عده بعض المتقنين المسلمين علامةً على موضوعية المستشرقين، لكن الواقع يثبت أن المعجم وضع من جانب المستشرقين كأداة للوصول ببسر إلى الأحاديث النبوية، واستخدامها للطعن في الإسلام.

(١) السابق، ص ٢١.

(٢) د/ عدنان وزان: الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر، ص ١٠١.

(٣) السابق، ص ١٠١.

(٤) رؤية إسلامية للاستشراق، ص (٨٥).

ومما يدل على أن هذا المعجم أنشئ خصيصاً كوسيلة للهجوم على الإسلام أن مصادر تمويل هذا العمل مؤسسات استعمارية في الغرب، ومنها: الأكاديمية الملكية الهولندية التي شملت للمشروع برعايتها، وكذلك الحكومة الهولندية نفسها التي قدمت للمشروع مساعدات مالية كبيرة، وكذلك الأكاديميات الرسمية في كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا وإيطاليا ويوغسلافيا^(١).

أما انتفاع المسلمين بالمعجم فقد جاء عرضاً، ولم يكن قط مقصوداً من جانب المستشرقين أو مموليهـم.

٦. الموسوعة العربية الميسرة:

هذه الموسوعة تعد ترجمة حرفية لدائرة معارف جامعة كولومبيا، التي وضعت تحت إشراف علماء من اليهود، وترجمها الأستاذ شفيق غبريل، وكوكبة من الباحثين، وأضافوا إليها المولد العربية، وقد ترجمت وأعدت دون تفسير للتاريخ العربي الإسلامي وحقائقه، ودون اعتبار لحاجة الباحث العربي والمادة الإسلامية فيها ضعيفة جديده وفائرة، وخاصة فيما يتعلق بفلسطين وتاريخ الأكيان.

وفي المقارنة بين مادة (مسجد) ومادة (مسرح) نجد أن المسجد قد كتب عنه خمسة عشر سطراً، في حين كتب عن المسرح ١٧٠ سطراً، أما تصويرها لمادة شريعة ومادة صلاة ومادة حقوق فهو تصوير بدائي وساذج^(٢).

خامساً: حضور المجامع العلمية:

كان للمستشرقين حضور فعال في المجامع والمنتديات العلمية، والمنشرة في أرجاء العالم الإسلامي، ولا شك أن أقوالهم وأبحاثهم في هذه المنتديات - على الرغم من أنها تزخر بالطعن في الإسلام - تقبل من جانب المفتونين بالحضارة الغربية على أنها حجة مسلمة، ويؤخذ بها في كثير من الأحيان، ومن أبرز المجامع التي ضمت مستشرقين في عضويتها:

١- المجمع اللغوي بمصر^(١):

(١) السابق، ص (٨٦).

(٢) أنور الجندي: معلمة الإسلام ٢/ ٦٣٢، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ١٤١١ هـ -

١٩٩١ م.

أ. هـ. أ. ر. جب: أكبر مستشرق إنجليزي، وكان عضواً بالمجمع اللغوي بمصر، وأستاذاً للدراسات الإسلامية والعربية في جامعة هارفارد، ومن كبار محرري دائرة المعارف.
ب. لوي ماسينون: وكان عضواً بالمجمع اللغوي المصري، والمجمع العلمي بدمشق، وهو متخصص في الفلسفة والتصوف الإسلامي.

ج. مرجليوث: وكان عضواً بالمجمع اللغوي بمصر، والمجمع العلمي بدمشق، وهو من محرري "دائرة المعارف الإسلامية".
د. نيكولسون: وكان عضواً بالمجمع اللغوي بمصر، وهو من محرري دائرة المعارف الإسلامية، وله كتابات في التصوف والفلسفة.

هـ. كارلو نللينو^(١): وكان عضواً بالمجمع اللغوي بمصر، وعضواً بالمجمع العلمي بدمشق.

و. فينسينك: كان عضواً بالمجمع اللغوي المصري، ثم أخرج منه على إثر أزمة أثارها الدكتور الطيب حسين الهواري مؤلف كتاب "المستشرقون والإسلام" صدر في سنة ١٩٣٦م، وحدث ذلك بعد أن نشر فينسينك رأيه في القرآن والرسول مدعياً أن الرسول (ﷺ) ألف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التي سبقته^(٢).

٢. المجمع العلمي بدمشق:

تسلل عدد من المستشرقين إلى المعهد العلمي بدمشق، ونالوا عضويته ومن هؤلاء:

(١) إبراهيم خليل أحمد: الاستشراق والتبشير، ص ٦١، القاهرة.

(٢) كارلو (١٨٧٢ - ١٩٣٨) ولد في تورينو، وعين أستاذاً للعربية في المعهد العلمي بنابولي، ومنذ عام ١٩٠٩م طفت الجامعة المصرية تستدعيه أستاذاً محاضراً في الفلك، ومن آثاره: منتخبات من القرآن، وشهد من الحياة المصرية، ونشر كتاب البيان لابن رشد، وعقيدة المعتزلة والعبادة، وطبيعة الخلافة، والحضارة الإسلامية، انظر: المستشرقون: ١/ ٤٣٢ - ٤٣٣.

(٣) د/ محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث، ص ٤٥٠.

أ. جريفي (١٨٧٨ - ١٩٢٥) ^(١):

طاف بلاد المغرب واليمن وبلغ مصر، ولما رجع إلى إيطاليا عين مساعداً لأمين مكتبة ميلانو فأحسن تنظيمها، ثم عين أستاذاً للعربية في إيطاليا، ثم قدم إلى مصر حيث عين مديراً للمكتبة الملكية، وله عدد من المؤلفات في شتى المجالات، وانتخب عضواً بالمجمع العلمي بدمشق.

ب. جويدي (١٨٤٤ - ١٩٣٥) ^(٢):

تعلم العربية وعلمها في روما منذ عام (١٨٨٥)، ثم كلف بتدريس تاريخ الحبشة ولغاتها، حتى انتدبه الجامعة المصرية أستاذاً للأدب العربي سنة (١٩٠٨)، وكان يلقي محاضراته باللغة العربية الفصحى، ومن آثاره: علاقة النحو العربي بمنطق أرسطو، وعاون في نشر الطبري، وكتاب الاستدراك على سيبويه لأبي بكر الزبيدي، ولهذا المستشرق الإيطالي محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب.

ج. جي. أرثور (١٨٧٤ - ١٩٢٨):

عين هذا المستشرق الفرنسي مترجماً بقنصلية فرنسا بدمشق، فطرابلس الغرب، وانتخب عضواً في الجمعية الآسيوية والمجمع العلمي العربي في دمشق، ومن آثاره: تولى في دائرة المعارف تحرير القسم الجغرافي والتاريخي والأدبي عن بلاد الشرق، وله كتاب عن سقوط أسبانيا، وترجمة السورة الأخيرة من القرآن.

سادساً: إلقاء المحاضرات:

انتدب كثير من المستشرقين لإلقاء المحاضرات في الجامعات الإسلامية وغيرها من المؤسسات العلمية، وقد كان لهذه المحاضرات صدًى واسع في نشر أفكار المستشرقين.

يقول الدكتور مصطفى السباعي:

(١) انظر: د/ محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث، ص ٤٣٨، وانظر: المستشرقون: ٤٣٥ - ٤٣٦.

(٢) إبراهيم الخليل أحمد: الاستشراق والتبشير، ص ٦١، وانظر: المستشرقون: ١/

ومن المؤسف أن أشدهم خطراً وعداءً للإسلام كانوا يستدعون إلى الجامعات العربية والإسلامية في القاهرة ودمشق وبغداد والرباط وكراتشي ولاهور وعليكرة وغيرها ليتحدثوا عن الإسلام^(١).

كما كان للاستشراق وجود فعلي في الحياة الثقافية العربية - فقد نشرت مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق في مجلدها السابع عام ١٩٢٧م أسماء ثمانية وثلاثين عضواً من المستشرقين، كانوا يشاركون في الكتابة والتأليف والنشر، وتخطيط المناهج والتعليم الجامعي، ويكتبون لمجلات الرسالة والهلل والمكشوف^(٢).

سابعاً: عقد المؤتمرات:

عقد المستشرقون منذ عام ١٨٧٣م حتى عام ١٩٦٨م عددًا من المؤتمرات، بلغت ٣٠ مؤتمراً، ضم الواحد منها مئات العلماء من أعلام المستشرقين، وكان الهدف الحقيقي من عقد هذه المؤتمرات إحكام خطط الاستشراق، والتبنيه على الوسائل والأساليب المناسبة لمواجهة الإسلام، وقد تمخض عن هذه المؤتمرات قرارات عدة، دونت في مجلدات.

وهذه المؤتمرات وما تمخضت عنه من قرارات تعد من أهم وسائل الاستشراق.

ثامناً: تربية جيل من أبناء المسلمين في بلاد الغرب:

ذهب كثير من أبناء المسلمين إلى بلاد الغرب للحصول على الدرجات العلمية كالماجستير والدكتوراه، رجع هؤلاء إلى بلادهم بغير العقول التي ذهبوا بها. على أن المستشرقين كانوا يعتقدون أننى قواعد الموضوعية تجاه الطلاب المسلمين، وبخاصة إذا كانوا يخالفون أساتنتهم في رأي من الآراء.

ومما يؤيد صحة ما ذهبنا إليه ما ذكره الدكتور مصطفى السباعي عندما ذهب إلى الغرب، من أن أحد المستشرقين وهو البروفسور

(١) د/ مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون، ص ٢٦.

(٢) د/ محسن جاسم: الاستشراق في الفكر العربي، ص ١٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٣م.

”أندرسون“ ذكر له أنه أسقط أحد المتخرجين من الأزهر، الذين أرادوا نيل شهادة الدكتوراه في التشريع الإسلامي من جامعة لندن لسبب واحد، هو: أنه قدم أطروحته عن حقوق المرأة في الإسلام، وقد برهن فيها على أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها الكاملة ... يقول الدكتور السباعي: وسألت هذا المستشرق: وكيف أسقطته ومنعته من نيل الدكتوراه لهذا السبب، وأنتم تدعون حرية الفكر في جامعاتكم؟ قال: لأنه كان يقول: الإسلام يمنح المرأة كذا، والإسلام قرر للمرأة كذا، فهل هو ناطق رسمي باسم الإسلام؟ هل هو أبو حنيفة أو الشافعي حتى يقول هذا الكلام، ويتكلم باسم الإسلام؟ إن آراءه في حقوق المرأة لم ينص عليها فقهاء الإسلام الأقدمون، فهذا رجل مغرور بنفسه حين ادعى أنه يفهم الإسلام أكثر مما فهمه أبو حنيفة والشافعي^(١).

وعلى أية حال، فقد استسلم كثير من أبناء المسلمين لفكر المستشرقين، وكانوا بمثابة زيول الاستشراق وأتباعه، نقلوا آراء المستشرقين، وتكلموا بالسننتهم، كان لهؤلاء اليد العليا في توجيه السياسة الداخلية في العالم الإسلامي بما يخدم أغراض الاستشراق.

يقول الأستاذ محمد الغزالي - رحمه الله -: ”إن أفكار هؤلاء الناس تبناها ناس من جلدتنا، يتكلمون بالسننتنا، ويظهرون بأنهم على ديننا، ويروجون هذه الأفكار، وكأنها نتاج عقولهم وثمرات تفكيرهم“^(٢).

(١) د/ مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون.

(٢) محمد الغزالي: دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، ص ٩، دار نهضة مصر، ٥ سنة ٢٠٠٢م.

المبحث الرابع

سبل مواجهة الاستشراق

يلاحظ الباحث من خلال دراسة الاستشراق أن حركة المستشرقين - عبر تاريخها الطويل - لم تترك من العلوم الإسلامية شيئاً إلا تطرقت إليه، بدءاً من القرآن الكريم الذي كان له نصيب وافر من دراسات المستشرقين، وتوجيه المطاعن إليه، بالإضافة إلى السنة النبوية المطهرة التي كانت محلاً للطعن والتشكيك من جانب الاستشراق، كما تناول الاستشراق شتى العلوم الإسلامية الأخرى بالدراسة.

وقد يغير الاستشراق من لونه، ويطور من مسلكه تجاه الإسلام - تبعاً للأحداث والظروف المعاصرة - إلا أنه لم يحرر نفسه تماماً من الخلفية الدينية للجدل اللاهوتي باستثناء بعض الكتابات؛ حيث إن "صورة العصور الوسطى للإسلام قد ظلت في جوهرها دون تغيير، وإنما نضت عنها الثياب القديمة لأجل أن تضع ثياباً أقرب إلى العصر، وتتعدد علائم الإصرار على الأفكار العتيقة سواء فيما يتعلق بالقرآن ومحمد (ﷺ) أو ما يتعلق منطقياً بالعتيدة والشريعة والتاريخ في الإسلام" (١).

وترداد الحاجة إلى مواجهة الفكر الاستشراقي لعدة أسباب، منها ما يلي:

أولاً: أن الاستشراق يعوق مسيرة الدعوة الإسلامية في بلاد الغرب نتيجة الأفكار المشوشة والأكاذيب الباطلة التي يروجها المستشرقون، والتي تحجب الإسلام عن المجتمعات الغربية.

ثانياً: للمستشرقين في العصر الحاضر حضور فعال في المنظمات الدولية مثل منظمة اليونسكو - وهي هيئة دولية تشترك فيها الدول الإسلامية - تسنكب المستشرقين بوصفهم متخصصين في الدراسات الإسلامية.

(١) أ. ل. طيبباوي: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، ص ٤٩٠، من معلقات كتاب الفكر الإسلامي الحديث.

للكتابة عن الإسلام والمسلمين في الموسوعة الشاملة التي تصدرها اليونسكو عن "تاريخ الجنس البشري وتطوره الثقافي والعلمي"^(١).

ومن ثمّ فإنه لا سبيل إلى إظهار حقيقة الإسلام في المحافل الدولية إلا من خلال رد كيد المستشرقين، ودفع مطاعنهم، وإلقاء الضوء على حقيقة الإسلام.

ثالثاً: لا زال الساسة الغربيون يستقون معلوماتهم عن الإسلام وشعوب الشرق الأقصى من دراسات المستشرقين الذين يحرفون - عن عمد- الحقائق الإسلامية.

والإسلام بطبيعته لم يهمل التيارات المناوئة له، بل جادلها الحسنی، وعرف زيفها وفضح أقوالها، وهذا من أساليب الدعوة إلى الله - تعالى - فالقرآن الكريم وهو دستور الأمة الإسلامية جادل المعاندين من أصحاب النحل الوضعية والأديان السماوية.

وقد جادل الرسول (ﷺ) اليهود والنصارى في كثير من المسائل الإسلامية، وقد أثمرت بعض المجادلات عن تسليم البعض للإسلام والدخول فيه.

وأرى أن سبل مواجهة الاستشراق تكمن فيما يلي:

أولاً: ١. بدء من استيعاب الإنتاج الاستشراقي، ودراسته دراسة عميقة، حتى يتسنى للباحثين المسلمين نقده نقدًا صحيحًا، ويلزم الاستيعاب الشامل تحقيق الأمور التالية^(٢):

١. القيام بحصر شامل لكتابات المستشرقين في المجالات المختلفة في القرون المتأخرة باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية والإيطالية والروسية، ويشمل هذا الحصر الكتب والمجلات والدوريات.

(١) د/ محمود زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية، ص ١٣٩.

(٢) د/ محمود زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية، ص ١٦٠ - ١٦١.

٢. لا بد من توفير كل الأعمال الاستشراقية المشار إليها عن طريق الشراء إذا كانت متوفرة، أو عن طريق التصوير إذا لم يكن شراؤها، وتشكل هذه الأعمال مكتبة استشراقية تكون تحت أيدي الخبراء والعلماء.
٣. يقوم جهاز متعاون من الخبراء في اللغات المختلفة بتحضير المادة، وتصنيف الموضوعات، وضم المادة التي يتكرر الحديث عنها في لغات مختلفة تحت موضوع واحد.
٤. تقديم المادة للعلماء الذين سيقومون بإعداد النقول العلمية، ويراعى عند تقديم المادة للعلماء أن تترجم لهم الأفكار الأساسية للقضايا المعروضة، ليكون عند العلماء تصور شامل لكل ما قيل حول القضية المطروحة، وحتى يغطي التناول للموضوع وجهات النظر التي قيلت فيه.
٥. تذكر مع المادة التي تقدم للعلماء أسماء المستشرقين الذين تناولوها وأزمנתهم وبيئاتهم.
٦. العمل على بيان المصادر التي اعتمد عليها المستشرقون في كتاباتهم عن قضايا المسلمين، وهل هي مصادر إسلامية أصيلة في الموضوع، أم مصادر غير إسلامية^(١).

ثانياً: تنقية التراث الإسلامي من الأفكار المشبوهة التي دخلته
عبر السنين بفعل الفرق والحركات الضالة، وبفعل الاستشراق، ويتطلب الأمر مراجعة مصادر التراث الإسلامي في كل المجالات لتفقيتها، وتخليصها من كل الأفكار غير الإسلامية ومواطن الضعف التي كثيراً ما يعتمد عليها المستشرقون والمنصرون في الاستدلال على أفكارهم وفي إثارة الشبهات.

(١) د/ أحمد عبد الرحيم السايح: مواجهة الغزو الفكري ضرورة إسلامية، ص ٢٢٤، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ١٩٩٧م.

وتأتى الإسرائيليات في مقدمة الأفكار التي دخلت الفكر الإسلامي، ووجدت له مكاناً في كتب التفسير والحديث، وبعض مصادر التاريخ الإسلامي، على أنه لا بد من الوضع في الاعتبار أن مصطلح "الإسرائيليات" لا يشير إلى الأفكار اليهودية، ولكنه يستخدم للدلالة على كل الأفكار الأجنبية المغرضة التي تم إدخالها في الفكر الإسلامي^(١).

يقول الدكتور محمود زقروق معلقاً على هذا الجانب:

ويكفي في هذا الصدد أن نشير إلى مثال واحد - من بين أمثلة عديدة لا تحصى - وهو قصة الغرائيق المذكورة في بعض كتب التراث، وهي قصة يعلم الله أن الإسلام بريء منها، ولكن المستشرقين قد ركزوا عليها، وسلطوا عليها الأضواء من كل جانب، واعتبروها نقطة ضعف في التوحيد الإسلامي الذي كان - في زعمهم - على استعداد ولو للحظة واحدة أن يتخلى عن تشدده مجاملةً لمشركي مكة. فإذا اتهمنا الاستشراق بالتجني - وهم متجنون بالفعل - حق لهم أن يردوا الاتهام قائلين نحن لم مخترع شيئاً من عندياتنا، أليست القصة واردة في بعض مصادركم المعتمدة؟^(٢).

ويجدر - أيضاً - تنقية المصادر الإسلامية من كتابات المستشرقين التي غزت بعض كتب التراث الإسلامي إبان حركة الترجمة التي قام بها علماء الغرب للمؤلفات الإسلامية.

ثالثاً: إنشاء مؤسسة علمية عالمية:

لا بد للأمة الإسلامية أن تعمل على مؤسسة إسلامية علمية عالمية حتى يتسنى لها مواجهة الاستشراق، شريطة ألا تنتمي هذه المؤسسة لقطر معين من الأقطار الإسلامية ولا لمذهب سياسي أو فكري أو ديني معين، بل يكون ولاؤها الأول والأخير لله وحده ولرسوله (ﷺ)، وتستطيع استقطاب الكفاءات العلمية الإسلامية في شتى أنحاء العالم، وتقف على قدم

(١) د/ محمد حسين الذهبي: الوحي والقرآن الكريم، ص ١٤٣، ١٤٧، مكتبة وهبة، القاهرة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

(٢) د/ محمود حمدي زقروق: الاستشراق والخلفية الفكرية، ص ١٧٩.

المساواة مع الحركة الاستشراقية، ويكون لها دوريات ومجالات علمية ذات مستوى رفيع تنشر بحوثها بلغات مختلفة، وتعمل على استعادة أصالتها الفكرية واستقلالنا في ميدان الأفكار، فهذا هو الطريق الصحيح إلى الاستقلال الاقتصادي والسياسي، إذ أن المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية لا يمكنه على أية حال أن يصنع المجتمعات الضرورية لاستهلاكه ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه^(١).

فعدم حدوث التنسيق بين المؤسسات الإسلامية - على الرغم من كثرتها - من شأنه أن يضعف من دور هذه المؤسسات، مما يؤثر سلباً في مواجهة الجهود المتضافرة في الغرب.

يقول الدكتور إدوارد سعيد: "كما من باحث عربي أو إسلامي يستطيع المخاطرة بتجاهل ما يحدث في المجالات البحثية، والمعاهد والجامعات في الولايات المتحدة وأوروبا، غير أن العكس ليس بصحيح ليس هناك مثلاً مجلة رئيسية واحدة للدراسات العربية تصدر في العالم العربي اليوم، بالضبط كما أنه ليس ثمة من مؤسسة تعليمية عربية واحدة قادرة على مضاهاة أماكن مثل: أكسفورد، وهارفارد وجامعة كاليفورنيا في دراسة العالم العربي، دع عنك موضوع آخر غير شرقي.

والنتيجة المتوقعة لهذا هي أن الطلاب الشرقيين (والأساتذة الشرقيين) ما يزالون يربطون الحضور إلى الولايات المتحدة والجلوس عند أقدام المستشرقين الأمريكيين، ثم العودة فيما بعد لتكرار القوالب الفكرية، على مسمع جمهورهم المحلي، ونظام إعادة إنتاج كهذا يجعل من الحتمي أن يستخدم الباحث الشرقي تدريبه الأمريكي ليشعر بالفوقية على أبناء وطنه، لأنه قادر على تدبر النظام الاستشراقي وفهمه واستخدامه، أما علاقته بمن هم أسمى منه مكانة - المستشرقون الأوروبيون والأمريكيون - فإنه سيبقى (المخبر الذي ينتمي إلى السكان الأصليين)، وهذا هو بحق دوره في الغرب، إذا كان حسن الحظ بحيث يتاح له البقاء فيه بعد انتهاء تدريبه المتقدم^(٢).

(١) مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين، ص ٦٢.

(٢) إدوارد سعيد: الاستشراق، ص ٣٢٠.

وابحاً: دراسة الحضارة الغربية:

ينبغي على العلماء المسلمين أن يفتقروا عن علوم الغرب وتراثه وحضارته، فليس صد الغزو الاستشراقي وحده هو السبيل إلى مواجهة المستشرقين، بل إن دعوة الأدب والعلوم الغربية ترخر بالانحرافات الفكرية، والأحرى بعلماء الإسلام أن يفتقروا التراث الغربي، وبالذات الكتب المقدسة لدى اليهود والنصارى، حتى يظهروا محاسن الإسلام ومساوئ غيره.

وقد عبر الدكتور مصطفى السباعي عن ذلك الأمل فقال: "سيأتي يوم ننتقل من نحن إلى دراسة تراث الغربيين، ونقد ما عندهم من دين وعلوم وحضارة، وسيأتي اليوم الذي يستعمل فيه أبناءنا وأحفادنا مقاييس النقد التي وضعها هؤلاء الغربيون في نقد ما عند هؤلاء الغربيين أنفسهم من عقيدة وعلوم، فإذا هي أشد تهافتاً وأكثر ضعفاً مما يلصقونه اليوم بعقيدتنا وعلومنا. ترى لو استعمل المسلمون معايير النقد العلمي التي يستعملها المستشرقون في نقد القرآن والسنة، وفي نقد كتبهم المقدسة وعلومهم الموروثة، ماذا كان يبقى لهذه الكتب المقدسة والعلوم التاريخية عندهم من قوة؟ وماذا يكون فيها من ثبوت" (١)؟

ثم يقول الدكتور السباعي أيضاً: "كثيراً ما أتمنى أن يفتقر منا رجال للكتابة عن هذه الحضارة "الغربية" وتاريخ علمائها بالأسلوب نفسه الذي يكتب به المستشرقون من تتبع الأخبار الساقطة، وفهم النصوص على غير حقيقتها، وقلب المحاسن إلى سيئات، والتشكيك في كل خير يصدر عن هؤلاء الغربيين، ولو حصل هذا لخرجت منه صورة لهذه الحضارة ولرجالها مضحكة مخزية ينكرها المستشرقون قبل غيرهم" (٢).

والواقع أن هناك نقوداً وجهت إلى الكتب المقدسة التي يرجع إليها أهل الكتاب من قبل الباحثين المسلمين، بجانب ما نشر عن الحضارة الغربية

(١) د/ مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون، ص ٦٦ - ٦٧.

(٢) السابق، ص ٦٧.

من صورة مشوهة لا تتفق مع العقول، لكن هذا كله لم يكن بالقدر المطلوب في مواجهة السيول المتدفقة من الغرب.

خامساً: إنشاء دائرة معارف إسلامية:

لا بد من عمل دائرة معارف إسلامية، يقوم بعملها العلماء المسلمون "فمشروع إصدار دائرة معارف إسلامية من بين الأولويات الملحة لمواجهة المستشرقين" إذ لا يجوز أن تظل تقنيات فكرياً من دائرة المعارف الإسلامية التي قام بإعدادها المستشرقون قبل الحرب العالمية الثانية، فقد تجاوزها المستشرقون، وأوشكوا على الانتهاء من إصدار دائرة معارف إسلامية باللغة العربية واللغات الأوربية الرئيسية، تقف على الأقل في مستوى دائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين تخطيطاً وتنظيماً وتتفوق علمياً، وتتقل وجهة النظر الإسلامية في شتى فروع الدراسات الإسلامية والعربية إلى المسلمين وغير المسلمين على السواء^(١).

سادساً: الحضور الإسلامي في الغرب:

من أساليب مواجهة الاستشراق تكثيف الحضور الإسلامي في الغرب، وهذا لا يتأتى إلا من خلال جدية العاملين المسلمين في حقل التدريس الغربي - فرغم كثرتهم - لا يستطيعون - إلا فيما ندر - أن يصرحوا بوجهات نظر تتعارض مع وجهات النظر الاستشراقية تجاه الإسلام، والغالبية العظمى منهم يجارون التيار السائد، وإن لم يفعلوا فقدوا عملهم^(٢) وإن فقدوا دينهم.

كما ينبغي على الحكومات الإسلامية أن تعمل على إنشاء معاهد أو مراكز بحوث إسلامية في أوروبا وأمريكا، على أن يكون لهذه المعاهد منشورات علمية، وتستطيع هذه المعاهد أن تزود الجهات العلمية في الغرب بالمعلومات الصحيحة، وتسهم بما تنشره من بحوث علمية رصينة بلغات تلك البلاد، وما تقيمه من ندوات ولقاءات ومحاضرات، تسهم في

(١) د/ محمود زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية، ص ١٧٠.

(٢) السابق، ص ١٨٠.

تصحيح التصورات الخاطئة عن الإسلام في أوروبا وأمريكا والتحقق من غلواء العداوة للإسلام في الغرب بصفة عامة^(١).

وينبغي على وزارات الخارجية في الدول الإسلامية أن تعمل على إيجاد ملحق ثقافي بالسفارات الإسلامية في الغرب، على أن يكون هذا الملحق حلقة اتصال بين العلماء المسلمين في الغرب والمؤسسات الدعوية في الدول الإسلامية

سابعاً: ضرورة العمل على توفير الكتاب الإسلامي في بلاد الغرب:

يعتمد المثقفون الغربيون في دراستهم للإسلام اعتماداً كلياً على كتابات المستشرقين ولا سبيل إلى عزل مؤلفات المستشرقين عن الوصول إلى أيدي القراء إلا بتوفير الكتاب الإسلامي البديل، على أن تتسم هذه الكتب باليسر والبساطة، ويجدر - أيضاً - ترجمتها إلى معظم اللغات المشهورة.

يقول الدكتور محمد خليفة حسن:

إن توفير المصدر الإسلامي في اللغات الأوروبية يؤدي إلى إحداث نوع من التوازن في مصادر المعرفة عن الإسلام والمجتمعات الإسلامية، ويعطي الفرصة للمثقف الغربي وطالب العلم المتخصص في الإسلام لكي يقارن ويوازن بين المعرفة الاستشراقية عن الإسلام والمعرفة التي تقدمها المصادر الإسلامية حتى يصل إلى الحقيقة التي ينشدها^(٢).

ثامناً: نشر اللغة العربية في غير البلاد العربية:

يجب على الشعوب الإسلامية أن تسعى إلى نشر اللغة العربية في المجتمعات الإسلامية غير الناطقة باللغة العربية، وفي البلاد الأوروبية - أيضاً - وفي ذلك تيسير على حفظ القرآن الكريم ومدارسه كتب التراث الإسلامي.

(١) السابق، ص ١٨١.

(٢) د/ محمد خليفة حسن: آثار الفكر الاستشراقي، ص (١٤٤ - ١٤٥).

تاسعاً: الحوار مع المستشرقين:

من أجل سبل مواجهة الاستشراق الحوار مع المستشرقين ومجادلتهم، والحوار بطبيعته أصيل في الإسلام، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (١)، وشرعية الإسلام تدعو إلى إظهار الحجج عند المواجهة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢).

ويهدف الحوار في الإسلام إلى بيان الباطل الذي عليه الخصم، ودفع الشبهات الموجهة ضد الحق، وذلك لإقامة الحجة على المخالف، وبيان الباطل على حقيقته حتى لا يحذوه الآخرون، ولنستبين طريق الضلالة كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣)، "وحتى يختار كل واحد أحد الطريقين على بينة ووضوح: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (٤).

وتاريخ الدعوة الإسلامية عامر بالنماذج الواضحة في حوار المعاندين للحق وإقامة الحجة عليهم، وقد سجلت السنة النبوية المظهرة صوراً مشرقة من محاوراة الرسول (ﷺ) لأهل الكتاب وغيرهم من المعاندين.

والحوار في حقيقته مطلب شرعي ينبغي أن يقوم به العلماء دفاعاً عن دينهم، ودحضاً لمفتريات المعاندين، وفي ذلك يقول ابن تيمية: "فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور طمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين" (٥).

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ١١١.

(٣) سورة الأنعام، الآية ٥٥.

(٤) سورة الأنفال، الآية ٤٢.

(٥) ابن تيمية: الفتاوى: ١/ ١٦٤ - ١٦٥.

ويعتبر الشيخ أحمد ديدات - وهو من مسلمي جمهورية جنوب إفريقيا- من أبرز علماء المسلمين في الوقت الحاضر، الذين قاموا بإجراء حوارات كثيرة مع المسيحيين في عدة أماكن من العالم، وعلى عدة أشكال ومستويات؛ إذ إنه له أكثر من ٣٢ حواراً مع القساوسة في الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وأيرلندا، وكندا، وهونج كونج، وسنغافورة، والهند، وزيمبابوي، وموريتانيا، وملاوي، وجنوب إفريقيا، فقد كان لهذه الحوارات آثار واضحة.

وتجدر الحاجة في العصر الراهن - وبخاصة في عصر العولمة وحوار الثقافات- إلى مواصلة جهود الشيخ رحمه الله الهندي وابن حزم وأحمد ديدات في محاور المناوئين للدعوة الإسلامية، واستدعائهم لمنتدياتنا العلمية، والذهاب إلى بلادهم بغية إظهار الحق والدفاع عنه.

وأخيراً دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

قائمة المراجع

- (١) القرآن الكريم، جلّ من أنزله.
- (٢) الأبطال، تومارس كارليل، كتاب الهلال.
- (٣) آثار الفكر الاستشراقي، د/ محمد خليفة حسن، القاهرة.
- (٤) أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن حبنكة، دار القلم.
- (٥) الإسلام في تصورات الغرب، د/ محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة.
- (٦) الإسلام والاستشراق، د/ محمود زقزوق، مكتبة.
- (٧) أوروبا والإسلام، د/ عبد الحليم محمود، دار المعارف.
- (٨) الاستشراق، د/ إدوارد سعيد، بيروت.
- (٩) الاستشراق في الفكر العربي، محسن جاسم، الهيئة العامة للكتاب.
- (١٠) الاستشراق والخلفية الفكرية، د/ محمود زقزوق، قطر.
- (١١) الاستشراق والمستشرقون، د/ مصطفى السباعي، ط المكتب الإسلامي، بيروت.
- (١٢) الاستشراق والمستشرقون، عدنان وزان، القاهرة.
- (١٣) تراث الإسلام، مكسيم رونتسون، عالم المعرفة.
- (١٤) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، رودي بارت، دار الكتاب.
- (١٥) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، مورييس بوكاي، دار المعارف.
- (١٦) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، مكتبة وهبة.

- (١٧) سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، / أنور الجندي، مكتبة التراث الإسلامي.
- (١٨) صور استشراقية، د/ عبد الجليل شلبي، دار الشروق.
- (١٩) العقل المسلم في مواجهة الصراع الفكري، عبد الحليم عويس، دار الوفاء.
- (٢٠) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، د/ محمد البهي، مكتبة وهبة.
- (٢١) الفكر الاستشراقي تاريخه وتقويمه، د/ محمد الدسوقي، المنصورة.
- (٢٢) لسان العرب، ابن منظور، بيروت.
- (٢٣) ما يقال عن الإسلام، عباس العقاد، دار الكتاب اللبناني.
- (٢٤) المستشرق، الحقيقي، القاهرة.
- (٢٥) المستشرقون البريطانيون، أريي، لندن.
- (٢٦) المستشرقون والتراث، عبد العظيم الدين، دار الوفاء، المنصورة.
- (٢٧) المصباح المنير، الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.
- (٢٨) معجم متن اللغة، أحمد رضا، بيروت.
- (٢٩) معلمة الإسلام، / أنور الجندي، دار الصحوة.
- (٣٠) مواجهة الغزو الفكري، د/ أحمد عبد الرحيم السايح، القاهرة.
- (٣١) نظرات في حركات الاستشراق، عبد الحميد مذكور، القاهرة.